

مرزوق

قوضى التعليم في مصر

١

تجليد

صالح النقر

الزينة

[REDACTED]

V.1

مرزوق، عبد الصبور

فوضى التعليم في مصر

MAR 8

A 1560

MAR 23

1-A

NOV 20

X 264

[REDACTED]

~~22 56~~

~~DE 4 '56~~

~~DE 18 '56~~

370.962
M393PA

عبدالصين مرزوق

فوضى الشعب سليم في مصر

الجزء الأول

الطبعة الأولى

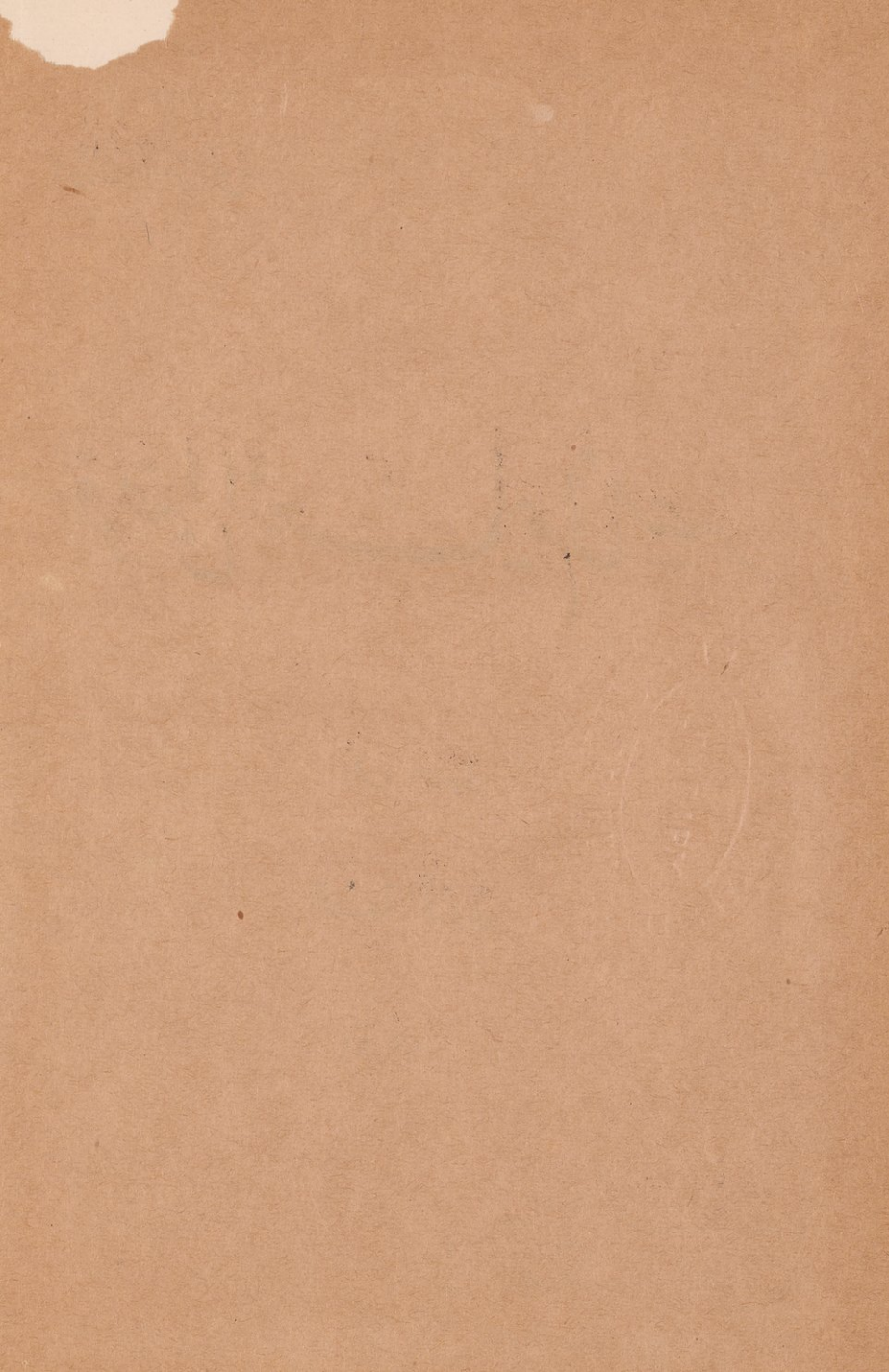
١٩٥١

الطبعة المنيرية بالآزهر

مكتبة العرب

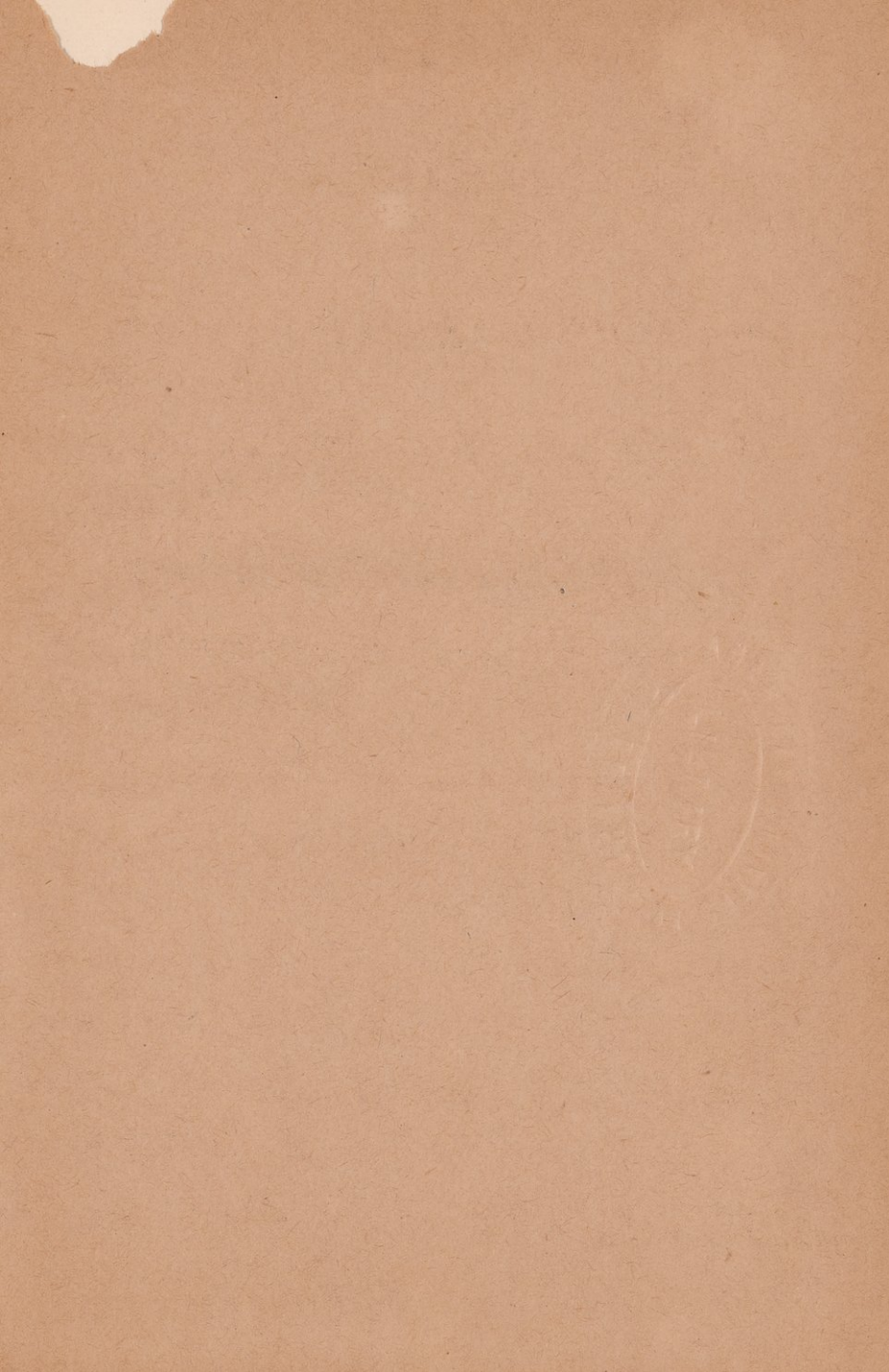
مديرها: صلاح الدين البستاني

٢٨ ش كامل صدقي (الفيحالة) القاهرة



الإهداء

الى الذين ايمانهم خالص بالشعب
والى الذين مجاهدتهم وقف خير الشعب
الى أولئك وهؤلاء نقدم هذا الحديث



هذا الكتاب

ألف الكاتيون منذ زمن طويل أن يتقدم بعضهم ببعض
إلى القراء .

ومن طبيعة هذا الإلف أن يكون صاحب الكتاب آخر
المتحدثين عنه .

وتلك من غير شك سنة ليس عليها بأس لأنها تتيح للكاتب
فرصة الخلاص من الحديث عن النفس وما يستتبع من نفور وعدم
ارتياح من كثيرين من القراء .

ولأنها تتيح الفرصة أيضاً لتقديم العمل الفني على صورته
الحقيقية أو أقرب الصور إليها بقلم لا يتحرج ولا يحتفظ ولا يحتاط
وإنما يجعل من « المقدمة » مرآة مجلوة صافية يرى القارئ فيها إلاماً
مصوراً موجوزاً لما هو مقبلٌ عليه ويرى الكاتب فيها إلاماً
مصوراً موجزاً لما قد فرغ منه .

فعمل « كاتب المقدمة » كعمل الناقد مع شيء من خلاف كلاهما
وسيط بين الكاتبين والقراء .

وعلى هذا المؤلف الجميل أردت أن أتهج ، وكان مقدراً أن

يتقدم بالكتاب زميلنا الصديق الأستاذ سيد قطب ، ولكن عارضا
ما حال بين الزميل الصديق وبين ما يريد .

فكان لابد مما ليس منه بد ، وأحسستني أعانى حيرة شديدة فى
تقديم نفسى إلى الزملاء ، واستشعرت بوضوح ثقل الحديث عن
النفس وما فيه من حرج وضيق ، وهممت أن ألغى هذا التقديم
لولا أن طابع الكتاب كان قد فرّغ للتقديم صفحات أربعاً لابد
أن تمتلئ بحديث عن الكتاب يعرض فصوله للقراء عرضاً سريعاً
فى إلمام موجز .

وعلى أى حال فقد وجدتني مكرها على أن أكتب هذه
الصفحات ، وأن أتحديث فيهن عن الكتاب ، وأقول عنه فيهن شيئاً .
قصة هذا الكتاب هى قصة الكفاح المهادىء المطمئن فى سبيل الخير .
قصة حملة الأقلام الذين لا يملكون من أمر شعوبهم شيئاً أكثر
من أن يكتبوا ويقولوا .

والذين يعتصرون من دماء قلوبهم مداداً يسطرون به دستور
كل نهضة ، وكل حظهم من السعادة أن تستجيب الشعوب لما يريدون .
وقد بدأت القصة فى نفسى شعوراً ملحاً فى الكتابة عن « الأوضاع
الخاطئة فى مصر » ، وأظنها من الكثرة والشيوخ بل ومن الخطورة
أيضاً بحيث تكون جدرة بما تستحق من عناية ، وجدرة بما تلقى
هن الفراغ لها .

وفي غمرة هذا الشعور القوي بدأت بالأوضاع الخاطئة في وزارة المعارف المصرية ، ومن هذه الأوضاع ما تتأثر به سياسة التعليم تأثراً يشيع فيها الفوضى والأذى من قرب ومن هذه الأوضاع أيضاً ما تتأثر به سياسة التعليم تأثراً يشيع فيها الفوضى والأذى من بعد ومهما يكن من شيء فوزارة المعارف أجدر مرافق الدولة بأن يبدأ بنقدها وعلاجها مثل : لأنى بطبيعة العمل المهنى أصدق الناس إحساساً بخيرها وبلاها . ولأنها بطبيعة إشرافها العام على عقلية الشعب وأفكاره ومشاعره يجب إصلاح فسادها قيل أن يكون إفساداً لعقليات هذا الشعب وأفكاره ومشاعره جميعاً . ولست بمستطيع أن أزعم نفسى أنى خلقت فى كتابى هذا للناس خلقاً جديداً أو أتى طلعت عليهم بفجر لم يشرق عليهم نوره من قبل . فكل ما فى الكتاب يحسه المصريون عامة والمعلمون والمتصلون بوزارة المعارف خاصة .

وإنما الذى أثق فيه ثقة لا يمسها شك أن هذا الكتاب تصوير صادق وصریح لبعض ما فى المعارف من أوضاع خاطئة ، أو تعبير صادق وصریح أيضاً عما أحسست به من شعور نحو الذين لقيتهم جميعاً فى طريق . .

طريق الطويل الشاق نحو النور .

طريق وطريقك أنت ، وكل من وهب عمره وروحه ليكون معلماً لهذا الشعب الطيب المسكين .

فالجديد في الكتاب إذن هو الصراحة والصدق ، فما من شك
في أن ما أعرض له من صور قد صادف آلافاً غيرى من الزملاء
وما من شك أيضاً في أن الأشواك التي تدمى قدمى في هذا الطريق
قد أسالت الدماء من أقدام الساعين مثلى .

ولعلك الآن مشفق علىّ من قبل أن تقرأ هذا الكتاب . . .
مشفق من بعض النفوس المريضة الهابطة التي تكاد الدعوة إلى
الخير تصم آذانها . ولعلك تخشى أن يصيبني منها أذى أو كره ،
ولعلك كذلك أيضاً قد طاف بي خاطر الاشفاق من الأذى والكره ،
بل ولعله قد أصابني بعض ما تشفق علىّ منه والكتاب لما يزل
بين أيدي طابعيه .

وسرعان ما قتلت هذا الخاطر المرتعد بقلم لا يخفى ما يحركه
ولا يخاف من الصراحة به ، وهذا أنا أتقدم بالكتاب إلى كل
زميل أجهده الطريق الشائك لعله وأجد فيه من الجرأة والصراحة
ما تستجيب له رغباته الحبيسة في الإصلاح والخير .

وإني أعلم تمام العلم أن لدى القارئ لهذا الكتاب جميعاً رصيذاً
من الأفكار والآراء والصور سوف يعين نفوسهم جميعاً على
على الوعي بمكنون كل لفظ جرى به قلبي .

تصدير

نحن معاشر المثقفين من أبناء هذا الجيل نتحسس الكثير من
الفرقة والتناحر بين طبقات هذا الشعب. تو شك أن يفتن بها
المصريون جميعاً .

نعم : وتلك حال بغیضة منكرة شقي بها المصريون زمناً طويلاً
ولا يزالون يشقون .

فمن أشاع هذه الفرقة ؟

بل من أحكم تدبيرها ؟

ومن دس في طيب الأرض هذا الخبيث ؟

ثم من هو الجاني الأثيم ؟

قد لا ندرى الآن وسوف يدرى التاريخ .

والذي ليس فيه شك أن يوماً ولى فيه « دنلوب » أمر معارف

المصريين كان أحلك الأيام ، وأشدها في نار يخ البلاد سوادا .

لقد ألغى هذا الأثم مصر في لغة المصريين وقلوبهم وعقولهم
جميعاً ، وأذل أعناق الحريصين بمن عاصروه ، ولقد أسعده الحظ
مع الأسف الشديد فعثر في سقط النفوس على كلاب من البشر
سعدوا مع الغاصبين في بؤس أهلهم !!

والحق أن ولاية « دنلوب » لأمر معارف مصر كانت شرآ
على المصريين من ضرب الاسكندرية فى يوليو .

والحق أيضاً أن لو لم يظهر « دنلوب » لكان للمصريين فى
التاريخ الحديث شأن غير هذا الشأن .

ولكن حيوات الأمم والشعوب كحيوات الأسر والأفراد
تسير بمشيئة عليا ، وتجرى على قدر .

وها نحن أولاء نلتقى بالقدر السعيد على وعى جديد وفجر
ضوءه لمآح ، نلتقى به بين الزملاء من المثقفين على نفوس فتيمة
آمالها شماء ، نفوس ولدت مع النور منذ فجر الثورة فما تنفك تتمايل
حين ترى ظلاما ، نفوس تصطرع فى احناء أصحابها تشكوا الفساد
وتود لو خلصت إلى الإصلاح .

على هذه النفوس الفتية - نفوس كرام الزملاء من المثقفين -
وقفت مصر آمالها وعلى هذا الوعى الرشيد اليقظ تركت قضاياها .

فليستشعر الزملاء مكاتهم ، وليثبتوا فى جلادهم حتى تخلص
للمصريين معارف مصر وحتى تعلن على الملاء نظافتها من آثار
الطاعون الدنلوبى المروع ومن صنائعه الأرذلين الذين ربوا على
طريقة yes Sir .

وبعد : فقد تكون مقدمة البحث غير أليفة إليه ، ولكن مزيجاً من

قلق الشباب وضيقه ، وأساه ، واضطرام نفسه بالحس الرهيف ،
والتوثب الدافق ، والإيمان بحق الوطن المظلوم في الحرية والخير .
كل أولئك قد هداني إلى أن أطل على الزملاء من زوايا وعيهم
الحبيب الرائع راجياً أن يكتب الله لمعارف مصر على أيديهم
خير مانرجو .

القاهرة في ٦/٨/١٩٥١

عبد الصبور مرزوق

ومبها نظر :

يتناول كثير من المفكرين - سواء منهم من ولى وزارة المعارف ومن لم يلها - يتناولون سياسته التعليم في مصر وما يجب أن تكون عليه من حيث مبادئها العامة . أولاً ثم من حيث وسائلها وغايتها بعد .

ومن هؤلاء المفكرين من يؤمن بوجوب التوسع والتعميم في التعليم حتى يشمل المصريين جميعاً . ويستمتع به المصريون جميعاً كما يستمتعون بالهواء والماء . حتى تكون استنارة الشعب شيئاً تستند إليه النهضة ، ويفيد في الخلق الجديد ، وحتى يكون فيه كذلك ضرب من التعويض عن الظلام الذى رسفت البلاد في قيوده ، وثبت الغاصبون دعاماته وأركانه .

ومن هؤلاء المفكرين من يؤمن بوجوب التضييق في التعليم . التضييق الذى يتناول من بين المصريين طائفة خاصة يمكن أن تكون قلتها مدعاة للعناية بها ، واقتدار الدولة على النهوض بواجبها وإنتاج التعليم معها ، ورأيهم أن قلة مركزة عالمة مطمئنة أجدى على الدولة من كثرة غالبية من أنصاف المتعلمين .

وكما يتخالف المفكرون حول المبادئ العامة لسياسة التعليم يتخالفون أيضاً حول الوسائل وطرائق التطبيق . فهل الواجب

أن تأخذ سياسة التعليم نفسها بالآناة والروية ولطماً نينة ، وتوثيق العلاقة بين حاضر البلاد وماضيها ، والوقوف طويلاً أمام التقاليد حرصاً على رعايتها . حتى تأمن العثار ، وننجو من معقبات الطفرة ، ونظل نحفظ بين شعوب الأرض بطابع تقليدى تمتاز به الثقافة المصرية ؟؟ .

أم من الخير أن تأخذ سياسة التعليم نفسها بكثير من الصراحة الجريئة التى تندفع وراء التطور الحازم الخطير غير متعثرة فى قيود الماضى ولا ناظرة إلى الوراء حتى لا تلبح الدولة فى حاضرها المشرق شيئاً من الظلمة الماضية قد تعوق التطور أو تطا من خطاه ؟ ومهما يكن من أمر المفكرين المصريين فيما يشغلون به أنفسهم ، وفيما يتخالفون فيه . فالذى ليس فيه شك هو أن موضوع الخلاف أمر عظيم الخطر والبأس ، جدير بما يلقى من الدرس والتفكير ، لأنه يتصل بصميم حياة المصريين جميعاً . هذه الحياة التى بنى عليها الأهرام وخلدوا الجسد الفانى على رغم البلى بآلاف السنين . والى أحنى جهالها ظهورهم لسياط الجفافة البشعين من الترك حتى غدت فرقعات السياط لغة دات ألفاظ ومعانى لا يتفاهم بها بين خلق الله إلا البغال والحمير وذلك الشعب الذليل .

وموضوع الخلاف أمر عظيم البأس والخطر أيضاً لأنه وثيق

الاتصال بالغد المرجو لمصر المستقلة إلى أبعد الحدود ، وبالتعليم وحده يتضح المصير المجهول .

فشكر الله لمن عنوا بالتعليم من قريب أو من بعيد ، وجزى الله المجتهدين فيه أخطأوا أم أصابوا إذ ليس من شك في أن سياسة التعليم في مصر ما تزال من أخطر المشاكل التي يجب أن يفرغ لها المفكرون حتى يقدر لمصر أن تطمئن على أجيال جديدة تحمل أعباء الحياة بقوة ، وكفاءة ، واقتدار .

وبعد : فما هي السياسة التعليمية المرجوة التي تمكن للمصريين أن يقضوا على الجهل وأن يتخلصوا منه ، ومن معقباته ؟ وأن يكونوا على قدر من الثقافة مقبول وملائم لتنوير البصائر ، وتنقيف العقليات ، يخلق فيهم روحا وحياة تعينان المصرى على التطلع لما وراء الحاضر من أحداث وآمال . ويهيئ لمصر جيلا يأخذ بيدها إلى حيث يجب أن تكون ؟

لعل من الخير قبل الإجابة على هذا السؤال أن تسارع إلى تحديد مركز التعليم المصرى بين مراحل تطور التعليم العام ، وأن نعرف بعد ما هي الغايات العامة التي ترجى للصيريين من وراء هذا التعليم ؟ .

اين نحن من التطور العام ؟

بوسعى وفى شىء من الصدق لا يحتاط ، ولا يتحفظ أن أقرر أنه ليس للتعليم فى مصر موقف يمكن تحديده من بين مراحل التطور العام، وذلك لأن طبيعة هذا التطور أن يبدأ التعليم بالتربية الأدبية القاصرة ثم بالكاملة ثم بالأدبية العلمية ثم بالعلمية فقط ، ثم بالعلمية العملية ثم بالعملية ، وقد يفنى بعض هذه المراحل فى بعضها الآخر بفعل مؤثرات إضافية من طبائع البيئات والشعوب ولكنها على أى حال مقاييس صادقة فى تحديد مكان الثقافة فى الأمم المتمدينة .

وإذا راجعنا الأوضاع التعليمية فى مصر ، وحاولنا تحديد مكاننا من مراحل التطور عز علينا ما نريد ولقينا من سعيينا نصبا والتحديد الصادق للرحلة التى تطورنا فى تعليمنا إليها هو أن ليست لنا مرحلة معينة وأن لدينا تشكيلة نادرة من جميع المراحل والمراحل .

الأمر الذى ليس من المغالات معه أن نقرر أن التعليم المصرى فى القرن العشرين ما يزال يعانى أشد الاضطراب وأخطره ، وأن المعلمين الآن يعانون طائفة منسكرة لاجئ لهم فى اصطناعها وإنما جناها أن الذى أنشأ جامع الأزهر غير الذى نظم التعليم

الأولى ، ولو كانت السياسة التي أنشأت الجامعة المصرية في الحاضر نفس السياسة التي أشرفت على إنشاء « الانكشارية » ، في الماضي التي كان لهذا الشعب الكسير وضع غير الذي ترى ولعنة الله على السياسة العامة وعلى أصحابها حين رموا بسياسة التعليم بين الرياح الهوج .

ففي الوقت الذي وصلت فيه بعض أنواع التعليم المصرى إلى ما يقارب أرقى مراحل التطور من حيث الأخذ بالتربية العملية لجميع المدارس والمعاهد ، والكليات التي يستمد طلابها ثقافتهم من التطبيق والعمل دون النظر والبحث ،

أقول في هذا الوقت نفسه ما تزال بعض أنواع العلم عندنا في أولى مراحل التطور لم تبرحها وما يزال الكثيرون من أبناء الشعب تحشى عقولهم بثقافة بدائية ليس فيها غناء ، وما تزال التربية الأدبية القاصرة نظاماً خالداً عتيقاً يحتفظ به الأزهر الشريف حتى الآن .

وما بقيت عندنا ألوان من التعليم لما تزل في مرحلة تطورها الأولى ، وما دام الموقف التعليمى فى مصر يشوبه هذا الاضطراب فليس بدعا أن تطل الطائفة بين المثقفين برأسها البغيض ومعقباتها المنكرة التي لا يعلم إلا الله وحده مدى خطرها على استقرار المستنيرين .

وإن من الخير لمصر التي تتوقى الفتن ما استطاعت أن تراجع سياستها التعليمية السابقة وتقوم ما فيها من عوج ، وأن تركز أقدام

النهضة الشاملة على أرض طيبة مر ساة زراعتها راشدون .
فلتبين سياسة المستقبل على سنة التطور بالتعليم من أسسه الأولى ،
ولنتابع السير فيها وفق المراحل العامة حتى تنتهى إلى الغاية السامية
التي نرجوها ، ولن نعوق من تقدموا ولكننا سننهض بالمتخلفين .
وإن من الخير لمصر وللتعليم المصرى ولتدعيم النهضة المقبلة
على ذات قرار مطمئن ، من الخير أن يفتح السياسة أعينهم على المثل
الحية الناطقة فى دول العالم المتحضر التى استوثقت من الأرض
بأقدامها ثم سارت لانهزها الأحداث فلنتأثر - سراعا وبإيمان ،
وفى غير تردد ولا شك - خطى السياسات التعليمية فى العالم المتحضر
ولنفد من كل قوة ملائمة لبيئاتنا ومستوياتنا فيها فقد بذت هذه
الأمم سياستها على أساس من طبيعة الأشياء فبدأت من حيث
المكان الطبيعى للبدء ثم تدرجت فى نموها السليم كما يتدرج السكان
الحى خلوا من الآفات .

غاية التعليم في مصر

أو من أعمق الأيمان بأن أقصى غاية نشدها لمصر من وراء هذا التعليم ، أن يصل بالمصريين لمثل ما وصلت إليه حضارات العالم القوى في أرقى مظاهرها .

وباستطاعتنا أن نحدد الغاية مبدئياً ، وأن نوضح الأهداف العامة التي نرجوها من ورائه حتى يقدر لنا وضع أسسه ومبادئه على ضوءها ، وحتى تكون ملائمة لهذه الغايات ، والأهداف وموصلة إليها .

والغاية المحلية للتعليم أن يهيئ للمواطن المصري أن يكون عضواً صالحاً في المجتمع يستطيع العيش المناسب المقبول بوسائله المقبولة المناسبة التي ترفع من شأنه ، وترقى بمستواه المادى والأدبى ومن ثم بمستوى المجتمع الذى يعيش فيه .

وتمشياً مع طبائع الأشياء والأحياء أن تخضع سياستنا التعليمية لطبيعة التطور العام بمعنى أن نأخذ كل تربية من التربيات الموجودة عندنا من حيث انتهت ، ثم نسير بها فى طريق هذا التطور حتى نصل بها الغاية ، وأى محاولة لإصلاح التعليم تخالف طبيعة الأشياء مصيرها ، ومصير التعليم معها ما نشهده من الفوضى وما يزال مشاغل الجدل والاضطراب ؟

أدواء

١ - عدم الاستقرار

وأخطر هذه الأدواء وأكثرها شراً على التعليم ألا تعرف البلاد له سياسة مستقرة .

نعم : ولن نستطيع وضع العلاج الصحيح لسياسة التعليم أو بعبارة أدق لن يقدر لسياستنا التعليمية أن تعطينا ما نريد منها إلا إذا ضمنّا لها الاستقرار وإمكانية التنفيذ وإلا إذا بعدنا بهذه السياسة عن الارتجال والقفزات والتصرف السطحي حتى نستوثق من أننا سنتم تشييد البناء بعد وضع الأساس .

أما هذا الذي شهده تاريخ السياسة التعليمية منذ بدأ لها في مصر تاريخ من القلق والاضطراب وعدم الاستقرار والتناقض فشئ طبيعي لا ينتج إلا مثل ما نحن فيه أو شرأ منه وذلك لأن الحزبية المصرية البغيضة تقلب أولى الأمر من أصحاب الاتجاهات التعليمية المختلفة على التنفيذ دون أن يقدر لأى من هؤلاء أن يسير في سياسته حتى شوطها الأخير وحتى يرى الناس مبلغ ما يفيد التعليم منها ومبلغ ما تنتج من تقدم أو نكوص ودون أن يقدر لأى من الاتجاهات التربوية أن يبلغ ما يراد له . وطبيعي ما دامت السياسة العامة تسيطر على سياسة التعليم . طبيعي أن يتخذ لونها ويخضع لظروفها وأن ينقض الخلف ما بدأ السلف

وأن يهدم المتأخر ما شرعه المتقدم والنتيجة المحتومة هي إنتقاض التعليم وتصدع هيكله العام وما وراء ذلك من بلبلة للأفكار وسلب الأمن من نفوس المثقفين وإشاعة الفوضى وعدم الثقة في نفوس الناس ، وليس من اليسير أن ننظر إلى هذه المشكلة نظرة عابرة ، فهي فيما نرى أخطر المشاكل التي تمس كيان الشعب . فالمعلم الذي يفقد إيمانه بقادته لا يستطيع أن يجد في نفسه فيضاً ينشر به الإيمان في تلاميذه ، والدولة التي لا تعرف استقراراً لوضع من أوضاعها لا يستطيع أفرادها أن يحددوا مواقفهم . من نوع التعليم الذي يختارونه لا بنائهم ، فلعل خلافاً سياسياً ، أو تغييراً للوزارة يكون سبباً في أن يصبح الذي ربي في الجامعة أتعس حالاً أمام الدولة ممن ليس له في الدولة مؤهل عال ولا وظيفه .

كما أن حرية الرأي والبحث الفكري لما تنضج عندها بعد . حيث لا نزال نرى . كل مدرسة تربوية تعلن حربها الشديدة العنيف على المتخرجين من مدرسة تربوية أخرى ؟ .

وكان الأجدر بنا أن تصطرع عندها المبادئ والأفكار ، ويشتد الجدل والتنافس بين نظريات التربية حتى يقدر للنتيج الملائم منها أن يدوم ويبقى بدل أن يكون الصراع بين الذين ربوا في هذه المدارس ولقنوا هذه النظريات .

كان الأجدر أن يكون الصراع حول سياسة التعليم صراع

نظريات ومبادئ ولكن روحاً بغياً ما يزال يرف على وزارة المعارف منذ أيام « دنلوب » يحمل إليها البغضاء ويشيع فيها الشقاق والفرقة . حتى لنكاد نرى أبناء المعهد الواحد الذين صيغوا على طريقة واحدة ، وربوا في ثقافة واحدة نراهم يبرأ بعضهم من بعض ، ويتسامى بعضهم على بعض ، ويحاول كل منهم أن يتخذ لنفسه أسباباً يستشعر بها التميز على الآخرين . فتستمع منهم إلى حديث عن النظام الحديث والنظام القديم حتى لكان مجرد اختلاف الأساتيد على الطلاب مما يبرر لهم أن يختلف بعضهم على بعض . هذا روح غريب لانهلح وراءه إلا شراً لا يدلنا في اصطناعه ، ولكنه من مخلفات جيوش الاحتلال . والرأى عندنا للخلاص من هذه المشكلة البالغة الخطورة أن تفصل سياسة التعليم عن سياسة الدولة فصلاً نهائياً كما فصل مجلس الدولة وتصبح كالمستقلة في كل شيء .

ولتحقيق هذه الفكرة تجب إعادة النظر في تأليف مجلس التعليم الأعلى . على أساس أن يكون ممثلاً لجميع المدارس التعليمية ذات وجهات النظر التربوية المختلفة المحدث منها والقديم ، والتقدمي منها والمحافظ . ثم تكون مهمة المجلس الأعلى تخطيط السياسة العامة ، وتحديد مبادئها .

ويجب على الأحزاب جميعاً الاشتراك في وضع ميثاق تعليمي توضح فيه المعالم الرئيسية لمستقبل التعليم ثم يوضع هذا الميثاق

في صورة قانون يتخذ لنفسه قداسة الدستور بحيث لا يجوز تعديله أو تبديله مهما تكن الظروف والأسباب إلا بعد مضي مرحلة تعليمية كاملة من مبدئها إلى نهايتها .

٢ — مركز المعلم في الدولة :

أسوأ المراكز وأحطها وأدناها .

هذا هو الواقع الذي لا أخدع فيه ، ولو اتفق جميع الشعراء على أن يقفوا لجنابه تبجيلا ويقولوا في حقه كاد المعلم أن يكون رسولا .

فما رأيت ولن أرى معلماً يقف له أحد من المصريين يوفونه التبجيل . إلا إذا استثنينا صغار الجبناء من التلاميذ الذين لا يقفون لجنابه إجلالا ، ولكن خشية سخطه وعصاه .

وما أراني بحاجة إلى أن أشرح للزمام مأساة وضعهم الأليم ، ولا أن أتعرف مواطن الضيق من نفوسهم ، فكلمهم ضائق ، وكلمهم ذو شكاة ، وكلمهم يحس أنه بعيد عن الدولة غريب عن أهلها ، وإن الدولة تحسده إن أصابه خير . وتلومه وتعنف به ولا تلبس له عذرا إذا أصابه شر .

وكنت أحب أن يكون المعلمون مصابين بالخير ، ولو أثاروا حسد الدولة من أقصاها ، إلى أقصاها ولكن أنى لهم ؟ ! فكل

المعلمين مع الأسف الشديد يعلمون أن اسم الجنس الذي يجمعهم منذ كان في مصر تعليم لم تخلع عليه إلا صفات اللوم والتعنيف وعدم التماس العذر .

نعم : فالمعلم ملوم أمام التلاميذ وآبائهم ودولتهم ولا يجد من ينصفه . فإن أخفق التلميذ فالمعلم ملوم فإذا قلنا لماذا ؟ زعموا أن المعلم لم يمر على التلاميذ في منازلهم ليتفقد ما يفعلون ؛ وكان عليه أن يفعل ، وزعموا أنه لم يوصلهم إلى هذه المنازل ليأمن ضياع وقتهم في الطريق وكان عليه أن يفعل .

وزعموا أنه لم يخرج لاصطيادهم من الطرقات حتى يجمعهم من الغياب والتأخير وكان عليه أن يفعل .

وزعموا أنه لم يستطع أن يحول بين التلاميذ ، وبين الاضراب والفوضى ، وكان عليه أن يستطيع .

وزعموا أن كثيرين من التلاميذ قد مرضوا فخرموا نور المعرفة وكان عليه ألا يمرضوا .

فإذا قدر للظلم مع جميع أسباب اللوم التي أسلفنا ، إذا قدر له أن تنجح من تلاميذه كثرة غالبية لامرؤه على نجاح هذه الكثرة بسبب سهولة الأسئلة حتى لكأن عليه كذلك ألا ينجحوا ، والمعلم ملوم أمام الدولة إذا استشعر الظلم وأحس عذابه فشكا ،

فإذا سألتهم قالوا أليس يربى الجيل ويعلم شباب الأمة ؟ أليس هو المثل الأعلى للوطن الجديد ؟ فقيم شكاته . وفيم تمرده ؟ أيريد أن ينشر الفوضى ويهدم كيان الدولة ؟ ولن يخلص المعلم من لومهم العنيف الشديد إلا إذا آمن معهم بأن رسالته أن يحمل نفسه وتلاميذه على الخزي ، والأذعان ، والفرح بالموت كمدا تحت حذاء السلطان .

والمعلم ملوم حتى لو كنتم شكاته وحبس آلام نفسه فيها .
فانا سألتهم قالوا : وكيف يسمح لنفسه بأن تتألم ؟ ولم تؤذ الدولة بعد بمثل ما أودى « محمد » ولم تقتله ولم تصابه كما صلب « عيسى » ؟

ألا قبّح الله وجه الأمة حين لاتستحي ، وأعان المظلومين على التخلص من ظالمهم فيها .

هذا الواقع السخيف المرير يعرنه الزملاء ، ويحسون سخفه ومرارته ، ولهذا لست أجد حاجة في أن أتحدث إليهم عن الوضع الأليم .

ولكني سأخز هذه الدولة بقلبي وخز أشديداً حتى تحس مكاني .
سأخزها بنفس القلم الذي أعالج به أعمال أبنائها مصوباً ومعلماً ومربياً وأميناً .

ساعلم الحاكمن كباراً كما علمتهم صغاراً أنى الذى استقبلتهم فى
مطلع التاريخ جهالاً وأغراراً وأطفالاً ضعاف العود . فغذوتهم
بدى نوراً ومعرفة وإيماناً وقوة . ومنحتهم روحى رشيداً يقود
صباهم الضال إلى الشاطئ المأمون .

فإن رعوأ لى جميلى فليس ذلك منّة .
وإن طغوا وتعالوا فالويل للجاحدين .

فلتذكر الدولة إن كانت الدولة قد نسيت أن المعلمين أساتذها
الدائمون . إن رضوا عن الدولة بدلوا بأسها رجاء وظلامها ضياء ،
وضعفها قوة . وإن سخطوا عليها وأسأل الله مشفقاً حذراً أن
يعين الحاكمن على تجنب هذا السخط . إن سخطوا عليها فلن تطيق
سخطهم ولن يكون لها به قبيل .

وعلى الدولة ألا تخدع فى ماضيهم الوقور الصابر ، وألا تطمع
كثيراً فى هذا الماضى فرب ذى غفلة قد أيقظته الليالى ، ولرب ذى
حلم تطيش بلبه الأحداث .

٣ - الجسد المنهوك :

يستعمل علماء التربية في وصف مهنة التدريس نفس اللفظة التي يستعملها قضاة محاكم الجنايات في وصف أقسى الأحكام التي يستحقها المجرمون . فكما يحكم القاضي على المجرم بالحبس مع الأشغال الشاقة يحكم رجال التربية على المعلمين جميعاً بأنهم يعملون في المهنة الشاقة ، وإذا كان في الأحكام الشاقة ما ليس مؤبداً وكان فيها يقبل التخفيف . فليست مهنة التعليم إلا شاقة مؤبدة ليس فيها ما يقبل التخفيف .

وأظن أن قارئ أحس بنفسه من هم أصحاب الجسد المنهوك ، وأنه قد عرفهم من غير أن أدله عليهم . إنهم الكادحون المغمورون الذين شقوا بالمهنة وتحرقوا فيها .

وأنا لست ممن يبالغون في تقدير الحقائق ، ولا عما يقولون بغير فهم ولا دقة ، ولكني ممن يستطيعون تحدى الدولة بجمعها أن تدلني على معلم غير ذى جسد منهوك .

والأسف الشديد أن المعلمين لم تنهكهم بيوت آبائهم، ولم تشغل كواهلهم بالهم والحزن فأنى أعرفهم جميعاً في حيوات دراساتهم ، أعرفهم طلاباً مرحين بأسمى الشغور منطلق الأساير ينامون على عيونهم ، ويتمتعون ملء رغائبهم ، ويطلقون نفوسهم في

كل واد سعيد لتعب من مجراه . وأعرفهم حين خدعهم القدر
الساخر فابتاعوا الصفقة الخاسرة في كل سوق ، فكانوا معلمين .
ثم أعرفهم جيداً ، وقد تقدم ركب الحياة بالأحياء جميعاً وظلوا
هم حيث بدأوا .

أعرفهم وقد نما جميع زملائهم في الدرس وانتعشوا حساً
ومعنى ، وظل الأساتيد الخالدون في مواقفهم لينقصوا
لا ليزدادوا .

ظلوا يلاقون الأسي ألواناً حتى أترعت قلوبهم من فرط
الأسي فذوت .

وظلوا يرقبون آمالهم تتهاوى في الخضم الصاخب ، أملاً
يندوب في محيط الحياة بعد أمل حتى أعيانهم التطلع فارتدوا بالأعين
الشكلى وبالطرف الحسير .

ظلوا يطمعون خيراً في الغد المجهول ، وصبروا ، ولم يظفروا ،
فانطوا على الحسرة الكبرى بجناح مهيض . أعرف المعلمين ،
وأعرف أنهم لا يشكون ، ولكن حالهم يشكو .

إنهم يدفعون ثمن الصبر على الشقاء من دمائهم وأعصابهم حتى
أشرفوا على الإفلاس دماً وأعصاباً . ان مهنة التعليم — بسبب
ما يقاسى المعلمون — مهددة بخطر الازدراء الاجتماعى الذى

يسبب التأكل والانقراض ، وسوف يحىء اليوم الذى تبحث فيه الدولة عن المعلم فلا تعثر عليه لأن العقلاء سوف يتعظون بغيرهم فلا يرتضون مهنة أهلوها ضائعون ، ولأن المعلمين أنفسهم يحاولون مشفقين إنقاذ الشعب من التورط فيما شقوا به وقد بدأوا فعلا بأبنائهم ، وأهلهم فخالوا دون أن يكونوا معلمين لأن الدين النصيحة .

ولأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين . وحتى لا يقول ابنه هذا جناه أبى على . فما يطيق المعلم أن يحمل الآلام حيا وميتاً . فلتنتبه الدولة للخطر الداهم . ولتحذر الفتنة القاسية ، ولتنظر إلى هؤلاء الفعلة النظاف بعين من حنان فإنهم كمصريين لهم بمقتضى الدين والعرف والدستور جميع حقوق المواطنين . إنها إن قصرت فسوف تعض إصبع الندم .

٤ - مطالب التفتيش :

وإذ أتحدث عن مكاتب التفتيش فلست أقصد إلى الحديث عن المفتشين . وإنما أقصد إلى هذه الخفنة المحدودة من أكابر المفتشين التى تقتعد مكاتب الوزارة تأمر وتنهى فقط لأنها تحب أن تأمر وتنهى ، وتنقل المعلمين من أسبوط إلى رشيد فقط لأنها أحبت أن ينقلوا من أسبوط إلى رشيد ، وترقى بالقواعد

والقانون إذا أحببت القواعد والقانون وترقى كذلك بغير القواعد
والقانون إذا لم تحبب القواعد والقانون .

إني شديد السخط على جميع مكاتب التفتيش التي تضع المعلم
في المكان الذي لا يريحه ولا يرضيه . وشديد السخط على مكاتب
التفتيش التي تنتزع من قلب المعلم أمنه وقراره .

إني أتهمها بالتفريط في حق الدولة ، وأتهمها بالجناية على النشء
وإني أحمّلها مسؤولية عدم إخلاص المعلم لعمله وللدولة ، وأحمّلها
مسؤولية برمه بالتعليم وضيقه لرؤية التلاميذ . وما يستتبع ذلك من
أزمات نفسية يتبادرها الطرفان وكلها خطر على التعليم .

إني أطالب بتحميل مكاتب التفتيش جميع معقبات ما يحدث
من جراء تصرفاتها السوء .

وليتفضل أنصاف الآلهة من حضرات أعضاء هذه المكاتب
فيتصوروا معي مشهد زميل من الزملاء مصاب بداء يمنعه من ارتياد
الأماكن الرطبة فضلا عن الإقامة فيها .

ليتصوروا مشهده معي وقد أصدر أصحاب الهيئتين من أعضاء
هذه المكاتب أوامرهم المقدسة بنقله إلى « الإسكندرية أو بلطيم »
في الشتاء القرم .

ليتفضلوا فيتصوروا معي حالته النفسية في ذلك الظرف ،

وما الذى يتردد فى صدره من آلام وما الذى يعتمل فى رأسه من خواطر ، وما الذى يطالع عينيه فى صفحة المستقبل ، ثم ليطلبوا إليه بعد أن يشرح لتلاميذه درساً يتحدث إليهم فيه عن مزايا العدل والإنصاف . ومنافع الحلم وضبط النفس ومكارم الأخلاق .

إنى أفهم أنها مكاتب تفتيش لا محاكم تفتيش . وأفهم أن تكون مهمتها إنسانية اجتماعية قبل أى شىء آخر . أفهم أن تبحث عما يريج الخواطر فتؤثره على ما يثيرها وتقصد إلى ما يرضى فتؤثره على ما يسيئ ، أفهم أن تكون هذه المكاتب لحماية المعلم من التلاميذ ومن أولياء أمور التلاميذ بل ومن الدولة نفسها لا أن تكون عوناً لكل هؤلاء عليه . إنى أطالب بتغيير سياسات هذه المكاتب فوراً على أن تكون فى خدمة المعلم لا فى خدمة التعليم . فإن خدمة التعليم هى ما يقوم به المعلمون إذا رضوا عن مكاتب التفتيش .

٥ - نظام التفتيش :

وأخيراً جاء دور حضرات المفتشين لنضعهم بين أدواء سياسة التعليم .

وأبادر قبل الحديث ، فأبعث بالتحية الخالصة إلى أشخاصهم جميعاً كآباء موقرين لهم علينا واجبات السن وفوارق العمر . فأشخاصهم تلك موضع احترامى ، وتقديرى . بل ومحبتى أيضاً ،

أيضاً ، فكل الذين نعرف من حضراتهم كرام محبوبون موطنوا الأكناف يأنفون ويؤلفون . فليست أشخاصهم إذن موضع المس والتناول — ولكنى سأعرض بالنقد البريء الخالص لهذا النظام الفاسد الذى يمثله لسوء الحظ حضرات المفتشين .

أولاً : كيف يختار المفتشون ؟

لعل أول ما يتبادر إلى الذهن أن أساس الاختيار هو العلم . فإن وزارة المعارف مؤمنة بأن العلم مادخل فى شيء إلا ركز بناءه وحفظ اتزانه ، وضمن تقدمه ، وهى مؤمنة بأن العلم ما ظهر فى الوجود إلا توارى أمامه الجهل والضعف وفساد النفوس جزعاً وإشفاقاً ، وهى مؤمنة بأن العلم ما كان مقياساً لعمل إلا رضى الجميع عن حكمه ، وأذعنوا لقراره . هى مؤمنة بهذا كله فهى لذلك أولى الناس بأن تجعله أساس تقديرها واختيار رجالها فتؤثر للتفتيش من عملها كل غزير موفور يستطيع أن يشارك ويوجه ، ويفيد من لم يكن فى طوقه من قبل أن يستفيد .

لعل ذلك أول ما قد يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم لأنه الشيء الطبيعى الذى يمكن تصوره ولكنك سوف تجزع أشد الجزع ، وتشفق أشد الإشفاق — بل وسوف أجز عليك تشاؤماً شديداً حين أقول لك : إن العلم يا سيدى ليس أساس اختيار المفتشين

ولنما الأساس الجهل . ولا يضيعن قارئ بهذا الذى يسمع ، ولا يبتسئ به ، فوالذى نفسى بيده لأننا أكثر ضيقاً بهذا الذى أقول من حضرات المفتشين أنفسهم ، وكما كان بودى أن تكون الحقيقة شيئاً غير ما قررت ، وكما حاولت إشفاقاً على مشاعرى أن أثنى القلم عن هذا الذى كتبت .

ولكن !! ما حيلتى وقد أرادوا وقع وزارة المعارف لحضراتهم أن يكونوا كذلك ، ورضوا هم بهذا الواقع ، بل وفرحوا به ، واطمأنوا إليه ؟؟ .

ما حيلتى ووزارة المعارف لا تختار المفتشين إلا على أساس مضى المدة ، وبقدر ما يعمر الرجل فى المهنة بقدر ما يفوز بالتفتيش ، وكما يقول مفتش الصحة عند استخراج شهادة وفاة لميت عجوز « إن الوفاة طبيعية » يسأل رجال الوزارة عن عمر المعلم فى المهنة فإذا قيل من المخلدن كانت ترقية إلى التفتيش طبيعية كذلك .

فكان وزارة المعارف فى هذا الأمر ملك الموت مع فارق هام هو أن عزائيل يختار للقاء الله من الشبان ، ومن غير المعمرين أما وزارة المعارف فلا تختار للتفتيش أحداً من غير المعمرين .

ما ذنبى إذا كان الإنسان فى خريف العمر - وهى السن التى يختار فيها المفتشون - عزوفاً بطبيعته عن كل ما يتعب عقله ، ويكدّه ويضنيه ، ميتاً بهذه الطبيعة نفسها إلى ضرب من الكسل العقلى

والبطالة الفكرية ، مكتفياً من الثقافة بما يقرأ هو . أو ما يقرأ له
من خفيف الجرائد والمجلات ؟ .

وما ذنبى أيضاً إذا كانت النفوس تشيخ كما الأجساد ؟ وإذا
كانت الألمعية تخبو كما يغيب الضوء .

ثم ما ذنبى إذا كان بعض الانجليز يقولون وهو حق إن من
أمضى ثلاثة أيام لم يقرأ خلالها شيئاً مفيداً فلا بد أن يقول شيئاً
تافهاً . فما بالك بمن أمضى ثلاث سنين . أو من أمضى بقية عمره
منذ أصبح من المفتشين لم يقرأ شيئاً ؟ !!

صحيح أن بعض النفوس تحتفظ بحيويتها مدى حياتها ، وتظل
شابة أبد السنين ، وتلك من غير شك نفوس العباقرة الخالدين .
فهل حضرات المفتشين جميعاً عباقرة ؟ .

الجواب بالطبع لا !! والنتيجة أنهم في خريف العمر جشعون
حريصون شغلهم أموالهم وأهلهم ، وأن عهدهم بالدرس
قد انقطع ، وأنهم لا يجدون معلوماتهم بالاطلاع ، وأنهم لا يقرأون
غير الصحف تسلية في الأندية ، فهم إذن خطر على التعليم لأنهم
يعيدون عن العلم .

ثانياً : وكيف يفتشون ؟

وتلك فيما يبدو للكثيرين مسألة دقيقة حساسة ربما تخرج القلم عن التعرض لها . فقد تظن الدولة أني كمعلم لا أستطيع أن أكون موضوعياً في نقد طرائق التفتيش . بمعنى أن نقدي لحضراتهم سوف يتساب إليه دوافع ذاتية خاصة كأن أكون ضائقا مثلاً بمفتش ما ، أو ساخطاً على مفتش ما ، أو بيني وبين حضراتهم ضرب من سوء الفهم تكون نتيجته أن أحكم على المجموع بتصرفات بعض الأفراد . وهذا خاطئ ، إذن فلا يصح للمعلمين خاصة أن ينتقدوا المفتشين فأنهم في هذا النقد متهمون .

هذا ما قد تظنه الدولة ، وماتوهم أن بوسعها وقد ظنت بي هذا الظن أن تحول بيني وبين ما اعتزمت . ولكن اتطمئن الدولة كل الاطمئنان على أني سوف أكون موضوعياً في نقد هذا النظام ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، ولن أسمح مطلقاً لأي شعور ذاتي بأن ينساب ولو خفية إلى سنان قلبي ، فبوسعي أن أحسن التفريق بين الأشخاص الكريمة التي آلفها وأحبها ، وبين النظام الفاسد الذي أنفر منه وأكيد له .

لتطمئن الدولة الاطمئنان كله فليس لظنها عندي مكان .

فالكاتب الآن ليس معلماً ، والمكتوب عنهم ليسوا المفتشين وإنما الكاتب الآن إنسان من الناس يسرح بصره في آفاق رحاب دونها وزارة المعارف بمن فيها ، . إنه الآن واحد من أولئك الذين يهيمنون في عوالم الحق والخير والجمال ينشدها جاهداً يبغى النفاذ من خلالها إلى عام سعيد ، إنه يريد أن يبني .

والمكتوب عنهم ليسوا المفتشين ، ولكنه النظام الفاسد الذي يمثله لسوء الخط حضراتهم كما أوضحته من قبل .

وبعد : فإذا كانت الغاية تقرر الوسيلة كما يقول الناس فما هي الغاية التي ترجوها وزارة المعارف من نظام التفتيش ؟ ؟ .

هل هي محاسبة نظار المدارس وكتابة التقارير عن شخصياتهم الإدارية ما ضعف منها وما فذ ؟ !

الجواب بالطبع لا : فليس من سلطة المفتشين أن يفتشوا على المدارس إدارياً حتى وليس لهم حق إبداء الرأي في ذلك . وكل العلاقات بين المفتش وناظر المدرسة أن يقبل الأول على الثاني كما يقبل الضعيف من الطبيعي أن يقوم له الثاني بواجبات الضيافة ، فيحييه أحسن تحية ، ويسهل له أداء مهنته حتى إذا فرغ مما يريد ودعه بمثل ما استقبل به .

أم هل هي محاسبة التلاميذ ، وتمييز النشيط اليقظ منهم من

الكسول الخامل . واقتراح عقاب المهملين في مجلس تأديب ،
ومكافأة المجدين أمام هيئة شرف ؟ مهلاً أيها القلم . فهذا كله وهم
ليس وراءه ظل ، فالحق أن المفتشين ليس لهم على التلاميذ مطلقاً
أدنى نوع من أنواع السلطان ، وليس التلاميذ مسئولين أمام
حضراتهم بأى لون من ألوان المسئولية عظيمها أو تافها ؛ وكل
العلاقة بينهما أن يدخل المفتش الفصل فيقف التلاميذ إجلالاً ،
ويسأل المفتش التلاميذ فيجبون تأديباً .

أم هل هي تعرف حضراتهم لمدى استفادة التلاميذ من البرامج
والكتب المقررة ، ومدى صلاحيتها لعقلياتهم وملاءمتها لبيئاتهم
واقتراح ما هو خير ؟ .

وحى هذه أقول فيها لا . فهذا واجب المدرسين كما تنطق بهذا
قشرات آخر العام .

مالغاية من التفتيش إذن إذا لم تكن محاسبة النظار، ولا محاسبة
التلاميذ ولا نقد البرامج والكتب ؟ لعلها أن تكون محاسبة
المدرسين وتقويم كل ذى عوج بينهم !!

وهذا ماتتوهمه وزارة المعارف . وهو وهم باطل والأيمان
يصححه أكثر منه بطلانا .

فالمفتش لا يستطيع مطلقاً أن يحاسب المدرس في أول العام .

اقول هذا مطمئناً إلى أن هذا العام الدراسي لا يكون قد أخذ وضعه الصحيح المستقر بعد ، ولا يكون التلاميذ قد تلقوا من أساتذتهم ما يحاسبون عليه ، ولم يقدم المدرس بين يدي العام ما يحتمل النقاش .

وإن صح ما أزعج فعمل المفتش في هذه الفترة نصح وتوجيه واتفاق على مبادئ وقواعد تكون مخالفة الأستاذ لها موضوع الحساب . وهذا أقرب الأشياء إلى الطبع . فالمفتش لا يستطيع مطلقاً محاسبة المدرس في أول العام .

إذن فليحاسبه في آخر العام ما دامت المحاسبة في أوله عسيرة غير معقولة . يحاسبه آخر العام حين تظهر نتائج التلاميذ التي تعتبرها الدولة مرآة لما بذل المعلم من جهد خلال عامه الدراسي ومقياساً لنوع العناية التي عولج بها التلاميذ . يحاسبه المفتش في هذه الفرصة عن الذين رسيوا فيم رسوبهم؟ ولم زاد الرسوب عن حده المعقول في الطبع؟ ولم قصّر هو عن غيره؟ يناقشه الحساب عسيراً في هذه المسائل كلها على ضوء النتيجة التي حصل عليها تلاميذه ويكون من حقه إذ ذاك بعد الحساب أن يحاكم لأن الدليل ملموس وهو نتيجة تلاميذه .

قد يكون هذا أقرب الأشياء إلى تصور القارئ العادي الذي لم يتصل بوزارة المعارف ولم يكن من معلميها .

ولكنك تعجب أشد العجب إذ تجد هذا الشيء الذى يمكن
تصوره لا تستطيع وزارة المعارف أن تتصوره ، ولا أن تسلم به .
فهي نفسها لا تسمح للمفتشين أن يسألوا المدرسين ولا أن يشاركوا
برأيهم فى النتيجة علت أم انخفضت .

فإن علت نسبة الناجحين فالوزارة قد عرفت بذلك من
الكشوف التى تتلقاها إدارياً ، وفى هذه الحال شكر الله سعى
حضرات المفتشين فإن الوزارة قد عرفت ما تريد من غيرهم .
وإن هبطت نسبة الناجحين عن المستوى الذى تقرره الوزارة ،
واحتماج الأمر مثلاً إلى إعادة النظر فى أمر المعلمين الذين أعدوا
هؤلاء التلاميذ ، وأوصلوهم إلى هذه النتيجة غير المرضية .

فى هذه الحال أيضاً شكر الله سعى حضرات المفتشين فإن
هناك إدارة ضخمة فى الوزارة تسمى إدارة الإحصاء والمشتريات
أو البحوث والمشتريات لست أدري تتولى على ما أعلم بالنيابة
عن حضرات المفتشين مهمة اقتراح لفت النظر ، أو لفته فعلاً ،
أو توجيه اللوم ، أو العتاب أو الشكر .

فإذا سألتنى وأين حضرات المفتشين ؟ فسوف أجيبك بأنهم
ليسوا هنا .

فإذا قلت أنت للوزارة إننا لم نجد المفتشين فى أول العام ، ولم

نجدهم في آخره فأين ذهببت بهم ؟ أجايتك الوزارة بكل اطمئنان
وثقة . إنهم موجودون بين أول العام وآخره .

شكراً لوزارة المعارف فقد دلتنا على مكان حضراتهم .
شكراً مضاعفاً على تسهيل مهمة الباحثين عنهم ، فقد عزّ على
الوزارة أن تفتقد رجالها في أول العام أوفى آخره فقالت مطمئنة
إنهم موجودون بين أوله وآخره .

وأنا مصدق لوزارة المعارف مطمئن لما تقول ، وأنا ممن
يقولون بلى ، ولكني ممن يحبون أن تطمئن قلوبهم . فلتسمح لي وزارة
المعارف بالبحث عن حضرات المقتشين في خلال العام ، وليتفضل
القارئ الكريم - معلماً كان أو غير معلم - ليتفضل بمشاركتي في
هذه المهمة الشاقة الدقيقة . أو بمراقبتي فيها على الأصح حتى لا أضل
ولا أتجنى ، وحتى يستطيع بعد أن ينتصف لي من الوزارة أو ينتصف
للوزارة مني .

للتفتيش دورات ثلاث خلال العام . إحداها في أوله ، والثانية في
منتصفه ، والثالثة قرب نهايته .

وأما الدورة الأولى فهي عندنا غير ذات موضوع كما يقولون
لأن المفتش لا يحاسب المدرس وإنما يعقد معه الاتفاق على شروط
الحساب مبدئياً فيوجهه ويرشده ، ويلقى إليه تعليماته التي يدور حولها
الحساب فيما بعد ، وتكون مخالفتها موضوع المؤاخذة واللوم .

وأما الدورتان الثانية والثالثة فهما موضوع البحث - وفيهما يوجد المفتش ، وتحس بوجوده وزارة المعارف ، وفيهما تتحقق الغاية من وجوده . وهى مناقشة المعلمين الحساب كما تريد الوزارة .
ألا : إن وزارة المعارف ساذجة طيبة القلب - تتوهم فى نفسها أشياء لا أصل - ثم تربي أوهامها تلك حتى تكبر ، ويكبر إيمانها بها ، ثم يطلع بها على الدولة كأنها حقائق يجب أن يؤمن بها الناس جميعاً كما آمنت وزارة المعارف .

والحق أن المفتشين لا يستطيعون محاسبة المدرسين ، ولا مراقبتهم بأى صورة من الصور ، وبوسع المدرس إذا كان فاسد الضمير أن يلعب بوزارة المعارف ، وبمفتشيها ، وأن يخلص من أحاييلهم . وبوسعه أن يهمل التلاميذ ، وأن يفسد التعليم ، وأن يقضى عامه الدراسى موفور الراحة . ناعم البال ، ولتكن النتيجة ماتكون مادام يستطيع أن يعبت بالمفتشين وبالدولة من ورائهم .
فمثلاً إذا كانت براعة المفتش . أن يضبط « دفتر التحضير » فبوسع المدرس أن يملأ له « دفاتر التحضير » علماً حديثاً يزينه التنظيم الجميل ، وسوف يعد المدرس لكل « حصه » واجبها ويضبط تاريخها الهجرى والميلادى ، وسوف يميز « تحضير » كل درس عن الآخر بخطوط حمراء وزرقاء وكل ألوان الطيف ، وسوف

يكتب « بالقلم الجاف ، لتزدان الصحائف ، وتفتتح نفس المفتش ويمتليء إعجاباً بهذا المدرس « الممتاز » .

نعم : سوف يعنى المدرس « بدفتر التحضير » أكمل العناية ، وسوف يدفع به إلى حضرة المفتش يفعل به ما يشاء ، ولكنه مع هذا سوف يهمل التلاميذ إهمالاً شنيعاً ، وسوف يكون عنيداً في إلقاء الثقافات إليهم لينظر ما يستطيع المفتش أن يفعل به .

سيتوهم المفتش أن بوسعه أن « يطبق » على كراسة التلاميذ ليحاسب المدرس فيها ، وسيأتيه فيها واحداً واحداً ليرى موضوعات الإملاء والإنشاء والتطبيق ، وهل تتفق عددياً مع نسبة العمل التحريري للعام ؟ أم لا ؟ وليرى أيضاً كيف شرح المدرس لتلاميذه درس « العصفور » ، وكيف رسم ذيله لهم وكيف أملاه عليهم ؟ وهل أتقن العمل و صوب الأخطاء ، أم ترك المسائل فوضى ؟ .

وليطمئن المفتش فما أصاب مخزناً حتى هذه ليست مأزقاً يصعب التخلص منه على صاحب الذكاء العاذي به المتخابثين الذين يريدون التخلص والهروب .

فبوسع المدرس وقد أعد درسه ، وأثبتته في « دفتر التحضير » بوسعه أن يمليه على التلاميذ إملاء في دقائق ، ثم يعود إلى مقعده فيضع ساقاً على ساق ، ويعكف على « المصرى » يطالع فيه « حركة

التنقلات « وأخبار » توحيد العذراء . فماذا يستطيع المفتش أن يعمل ؟ .

إنى أتحدى الدولة إذا زعمت أن المفتشين يستطيعون أن يغالبا المدرسين على أمرهم .

إنى أتحدىها إذا توهمت أن بوسعها مناقشة المعلمين الحساب . لا يأسادة المعارف لا : إن شيئاً واحداً هو الذى يستطيع أن يطارد المدرس ليله ونهاره ويستطيع أن يفزعه فى يقظته ونومه : ويفرض عليه أن يعمل ، ويعمل حتى يخر شهيداً .

هذا الشيء الوحيد هو ضميره وإرضاء نفسه .

فإذا توفر هذا الضمير فليست بالدولة حاجة إلى المفتشين . وإذا لم يكن للمدرس ضمير فحساب الوزارة له أحد المستحيلات . وإذا كانت الغاية التى تقصد إليها الوزارة من نظام التفتيش لا وجود لها فلم يوجد المفتشون ؟ ؟ .

الواقع الذى يعرفه الزملاء جميعاً أنها أمور شكلية بحتة ، لا قيمة لها فى سير العمل مطلقاً . وكل ما فى الأمر أن عمل حضرات المفتشين هو إحاطة المدرسين علماً « بالنشرات » التى تديعها الوزارة بين الحين والحين . كأنهم فى هذا الأمر « وقائع رسمية » حية . يحاسب المدرسون على مخالفة الأمر بمجرد صدوره عنهم .

ولست أرتضى لثقافة المفتشين ومكاناتهم ، ولا لكراماتهم الشخصية أن يكونوا « سعاة بريد » فهذا عمل يستطیع النهضة به موظفون دون المفتشين ثقافة وسناً ومقاماً .

٦ - كتابة التقارير :

أعود فأؤكد ماقررتة من قبل أن نظام التفتيش بوضعه الحالی لا یخدم التعليم فی كثير ولا قليل ، ووجود المفتش من هذه الناحية لا یکاد يحسه أحد من المعلمين ، ولا تفيد الدولة من ورائه شيئاً .
ذا خطر .

ولیس یکفی لخدمة التعليم أن يقول المفتش للمعلم إن تليذك لم يضع « فواصل » فی کتابته أو لم يترك سطر آ بين الموضوع وبين عنوان الدرس ، ولیس یکفی أن يذهب به إلى أن ذیل العصفور فی هذا الشكل جاء طويلاً مليئاً بنسبياً ، أو أن مقلب القطة فی شكل آخر قد طال عما يجب قليلاً .

لیس یکفی هذا الخدمة التعليم فهذا كله سفساف لا خطر علی التعليم منه ولا تأثير له فيه .

وإنما يحس المدرسون بوجود المفتش إحساساً عميقاً حقيقياً ، ویلتمسون رضاهم ، وقد يخشونهم أحياناً لیس للعلم ولیس لفوارق السن فإن العلم لا يؤذى والسن لا تخيف ، ولكن لأن شيئاً تقليدياً

موروثا أشاع في نفوس المدرسين هذا الحس ، وهو أن من سلطات المفتشين « كتابة التقارير » .

وإشفاقا على أعصاب المعلمين ، وعلى أحاسيسهم ، وتقريراً للأمر الواقع أحب أن أهون من خطب هذه التقارير ، فإن تهوين الخطب على أحاسيس المعلمين أحب عندي وآثر لدى ، وأسمى مكاناً في تقديري من أن تفزع بأوهام طال الزمن على الخديعة بها ، .

فالحق أن تقارير حضرات المفتشين سواء كانت مرضية أم مسخطة ليس لها من مصير إلا مكاتب التفتيش . ولمكاتب التفتيش في الواقع مزاج عجيب لم أستطع تكيفه بعد . فهي أحياناً تعترف بتقارير المفتشين ، وتقيم لها كل حساب إذا كان مزاجها أن تعترف بها وتقيم لها الحساب .

وأحياناً آخر ترسلها إلى « مخازن الأرشيف » ، إذا لذلها أن تبعث بها إلى « مخازن الأرشيف » .

هذه بخلافها قصة المفتش الذي تعينه الوزارة بمضى المدة . وتفترض وجوده في معاهد التعليم فلا يحس بوجوده ناظر المدرسة ولا تلميذها ، ولا مدرسوها إن شاءوا ، وحتى الوزارة التي تعينه ، وتفترض وجوده يلذ لها أحياناً أن تهمل هذا المفتش ، وتبعث بتقريراته إلى سلة المهملات .

والقصة فيما أعتقد سخيفة مؤلمة لأنها فوق إسائها إلى سياسة

التعليم وإلى كرامة الدولة التي تهيمن على التعليم تسيء إلى كرامات المفتشين كأفراد تقدمت بوقارهم السن فليسوا صالحين مطلقاً لتأدية الهزلى من الأدوار .

والذى نريد؟

أولاً : يجب أن يلغى اختيار المفتشين على أساس مضى المدة ، وأن يكون أساس الاختيار هو العلم الذى تسنده خبرة عملية معقولة مناسبة .

ثانياً : يجب أن تكون هناك دراسات خاصة بحضرات المفتشين يتقنون فيها دراسة فلسفات التربية على أوسع صورها ، ودراسة النفس الإنسانية بنوازعها وعوامل التأثير فيها . دراسة تجعل منهم مستشارين فى حل المشاكل الدقيقة التى يواجهها المعلمون فى معاهد التعليم .

ثالثاً : يجب إلغاء كلمة «المفتش» ، ومكاتب «التفتيش» واستبدالها باللقب العلمى المعبر الموحى وهو كلمة « المرشد » ومكاتب « الإرشاد » .
رابعاً : يجب ألا تزيد مدة «إرشاد المدرس» أى التفتيش عليه على أربع أو خمس سنوات على أكثر تقدير منذ اشغاله بالمهنة ، فالمدرس الذى مر عليه « المرشد » طوال هذه المدة لا يصح إرشاده (أى التفتيش عليه) بعد ، فإنه صالح بعد هذه الحال لأن يكون من المرشدين .

خامساً : يجب ألا يزيد الفرق بين سن التخرج للمرشدين والمدرسين على ثمان سنوات أو عشر مهما تكن الظروف . بحيث يكون هناك مكان تلتقى فيه العقليتان في الحس والتفكير أما أن يتخرج « المفتش » عام ٩٢٠ مثلاً ، وتصر الدولة على تكليفه بإرشاد عقلية معلمى ٥١ ، وتكليفها فهذا ما لن يصل إليه منهما أحد .

سادساً : يجب عقد مؤتمرات سنوية في نهاية كل عام دراسي يستعرض فيها حضرات « المرشدين » أنواع الحالات غير العادية التي صادفوها خلال العام سواء كانت بين المدرسين أم بين التلاميذ ، ويتشاورون في طرائق علاجها على أضواء الدراسات الخاصة والمعارف المباشرة التي استفادوها من تجاربهم .

٧ - صد الخدمه :

إن أول ما يوحى به هذا النظام هو أنه اعتراف من الدولة
للمدود في آجالهم بأنهم ممتازون أكفاء .

ونحن نبارك هذا الاعتراف ونسر به كل السرور ونرضى عنه
كل الرضى . بل ونبعد فيما نرى فنتمنى على الله أن يملأ الدولة كلها
بالممتازين الأكفاء .

ولكننا لا نكاد نفرح بهذا الإكليل الجميل . ولا تكاد ترقى
إليه عيوننا وتتمناه قلوبنا .

أقول لا نكاد نقرب من هذا المجد العظيم حتى تنفر نفوسنا
أشد النفور ونسخط أشد السخط وتألم كل الألم .

ذلك بأننا نكشف فيه عن شيء مروع وخطير حين نعرف
أن كل زهرة من زهرات الإكليل قد أخذت حراماً من زارع
محروم من بعد ما سقاها دمه ورباها بنور عينيه .

قلت إنى أبارك اعتراف الدولة لأبنائها بالامتياز والكفاءة ،
ولكنى أرفض بمنتهى الشدة أن يتم هذا الاعتراف على حساب
الآخرين .

والواقع الآن أنه يتم على حساب الآخرين ، فإن هذا المدمعناه

أن يستمر الممدود له شاغلا للعمل وللدرجة التي هو فيها بحيث لا يجوز أن يرقى إلى هذه الدرجة أحد .

ولما كان المد لا يحدث إلا لأصحاب المناصب الكبرى ذوات الدرجات الكبيرة فإن معنى هذا حرمان جميع درجات هذا السلك من ترقيات يفيد بها أصحابها . وحرمان الفرد من حقه هو في ذاته عمل بغض وغير مشروع .

فإن كانت الدولة مصرة على تكريم الممتازين من أبناءها فبوسعها أن تستبقهم في الأعمال التي كانوا يؤدونها بوصفهم مستشارين لهذه الأعمال يفيدون بخبرتهم التي تتلاءم وجلال أقدارهم .

أما درجاتهم الإدارية فيجب تسليمها فوراً لأصحاب الحق فيها تجيء أدوارهم في الترقى بحكم خلو المكان ، وبهذا نقدر الأكفاء والممتازين ونستفيد بهم ، ونراعى في ذات الوقت حقوق أصحاب الآمال المشروعة في الرفع والرقى .

٨ - أنصاف المعلمين :

لم أكن أقدر أن تتابع البحث سوف يكرهنى على الكتابة تحت هذا العنوان فهو فى ظاهرة إساءة كبرى إلى المعلمين أحطم قلمي إذا أصابه العجز عن محوها .

وإنما كان فى نيتى أن أعقد لهذا الفصل عنواناً آخر هو « إعداد المعلمين » وكيف تتبع الدولة فى هذا الإعداد نظاماً فاسداً يقود شباب المعلمين إلى هوة سحيقة من الظائفية والخلاف ولكنى لم أجد أكثر تصويراً للمشكلة التى أواجهها ، ولا أكثر إشاعة للسخرية المريرة بوزارة المعارف من إثبات هذا العنوان .

والعنوان مؤلف من كلمتين لست أعرف لهما مدلولاً فى أى دولة من دول العالم المتحضر ، ولست أعرف بين الراقين من شعوب الأرض شعباً واحداً فيه ما يسمونه « إينصاف المعلمين » . فليس فى إنجلترا . وليس فى أمريكا ، وليس فى روسيا ولم يكن فى ألمانيا « أنصاف معلمين » .

أما فى مصر فتستطيع الدولة بكل روية وهدوء أن تضع يديك على المعلمين وأنصاف المعلمين وأرباع المعلمين بل والمعلمين غير المعلمين ، وما شاء الله من هذا المسخ العجيب الغريب الذى تضيق به النفس أثقل الضيق وأبغضه وأقساه .

ما هذا ؟ ؟ .

إني لأنكر نفسي أشد الانكار ، وأنقر منها أشد النفور ، وأزدرى المهنة التي أنا فيها ، ولطالما هممت أن أقيل روعي من عشارها ، وأن أخلع عنها رداء التعليم حتى أريحها وأحميها من الزرارة التي تلصقها الدولة بالمعلمين .

والمؤلم المشين أنك تستطيع أن تحس هذا الاحتقار الشنيع من وزارة المعارف لبعض الطوائف من معلمها من التصرفات السخيفة التي تتورط فيها هذه الوزارة الخمقاء .

فهي تصر على أن يكون تقديرها لمعلمي الكتاتيب غير تقديرها لمعلمي الأولى ، وتقديرها لمعلمات الرياض وخريجات الأقسام الإضافية مثلاً غير تقديرها لمعلمي الابتدائي والثانوي من الجامعيين . واختلاف التقدير ، وما يستتبع من تمايز أدباً ومادة هو مبعث هذه الطائفة البغيضة التي تطل برأسها فتمزق أجسام المعلمين . وتهز التعليم العام .

واختلاف هذا التقدير ، وما يستتبع من تفاوت ، وتمايز هو المنفذ الدنيء الوحيد الذي تستطيع الأيدي النجسة الرخيصة أن تندس من خلاله لتحطم الحركات المكافحة التي يقوم بها المعلمون بين الحين والحين .

واختلاف هذا التقدير ، وما يستتبع من تفاوت وتمايز هو مبعث انحلال خلق خطير يتهدد نفوس المعلمين أبناء هذه الدولة

الظلمة التي تزرع الغرور الكاذب في بعض طوائف المعلمين حين تظل تنفخ فيهم من تقديرها وغرورها فتستمدد نفوسهم بهذا الغرور حتى ما تعود تطيقه أعوادهم الضعاف فتتهوى وتنهار .

وهذه الدولة الظالمة هي التي تزرع الحقد ، والأسى والانطواء الصاخب المخيف في طوائف أخرى من المعلمين حين تحرمهم من تقديرها ، وتردهم عن حماها بغلظة وجفاء كأنهم سائلون .

تحديد ثقافة المعلم

والمشكلة الكبرى التي تتحدر إلينا من مخلفات الأثيم « دنلوب » هي أن وزارة المعارف حين تعد معلمها وتصطنعهم على عينها تحدد ثقافتهم ، وتصبغ عقلياتهم بألوان المدرسة التي يرشحون للتدريس فيها ولا تسمح لهم من الثقافة إلا بالقدر المعين المساوى تماما للبيئة التي سيعلم أبناءها ، وتحرمه بعد ما زاد حتى لو رغب فيه .

فللمعلم الأوّل ثقافة تحددها وزارة المعارف بحيث لا تزيد حرفا عما يتلقاه تلاميذ المدارس الأولية . فهي ترى أن تلاميذ الأولى لن يعلموا اللغات الأجنبية مثلا ولن يحتاجوا إليها فلا داعى في زعمها لأن يتعلمها المعلم الأولى وأن يحتاج إليها .

وهي ترى أن التعليم الأولى لن يدرس تاريخ مصر ولا أصول نهضتها القومية ، ولن يخرج منه مثقف مستقيم العقل واللسان ، ولن

يتعمق تلاميذه أصول الشريعة ولن يتفهموا أسرار دينهم . فلا حاجة بها إذن لأن يكون معلمهم على جانب من ذلك كله مشرف مقبول .

وإذا كانت وزارة المعارف تحكم بقسوة على هذا الجيش اللجب من المعلمين فتجردهم من كل ثقافة أصلية مرشدة وهادية فلماذا تبقى عليهم ؟ ولماذا تدعهم بهذه القشور الجافة من الثقافة لا تسمن ولا تغني ؟ إن الحرمان من الثقافة المطمئنة جريمة كبرى لا تطيق وزارة المعارف أن نلقبها عليها . وإن مدرس التعليم الأولى هو المعلم الأول من غير شك وهو على استعداد لأن يدرس ثقافة الجامعيين وأن يتدوقها إذا مكنتموه منها ، ولقد أثبت الكثيرون من بينهم أن المعلم الأولى يستطيع أن يتخطى السدود والقيود ويحمل من الألقاب العلمية أعظمها وأرقاها .

فلماذا تحدد الدولة لهؤلاء ولما على شا كلتهم مقداراً من الثقافة لا تجود بغيره بحجة أن المستوى الذي سيعلمون أبناءه كثير عليه هذا القدر ؟ وما مصلحة الدولة في أن يكون بين معلمها من ثقافتها كاملة ، ومن له نصف الثقافة ومن له ربعها ومن ليس له فيها شيء ؟ أي دافع يدفعها لهذا ؟ .

ربما حاولت وزارة المعارف أن تدفع عن نفسها حين تزعم مثلاً أن ليس هناك ما يدعو لأن تزيد ثقافات مدرسي التعليم الأولى عن

بيئة تلاميذ التعليم الأولى وعقلياتهم . وليس هناك ما يدعو أيضاً لأن تزيد ثقافات مدرسات الرياض على ما يحتاجه تلاميذ الرياض ، وهكذا في معلمي الابتدائي ومعلمي الثانوي .

ولكن وزارة المعارف إذا استطاعت خداع العامة بين أبناء هذا الشعب عن فظاعة جرمها في هذا الشأن فلن تستطيع مطلقاً خداع المعلمين أنفسهم عن أنفسهم ، ولن تستطيع مثلاً أن تخدع خريجات الأقسام الإضافية بأنها منحتهن من الثقافات ما كن يتمنين ولن تستطيع إقناعهن بأنهن في تقديرها ونظرها على قدم المساواة مع أوائل المدرسين أو المؤهلات العليا من الجامعيين !! .

أقول : لن يقدر لوزارة المعارف أن تخدع المعلمين عن إساءتها إليهم ، ولن ينس المعلمون لوزارة المعارف أنها فرقتهم في الثقافة أقزاما ، وعماليق ، ثم استدارت فسخرت من ضالة الأقزام وغرور العماليق .

وبعد : فوزارة « دنلوب » متهمه أمامي بواحدة من اثنتين :
فإما أن تكون جاهلة ، وإما أن تكون خائنة .

فأما الأولى فلا أكاد أرتضيها ، ولا أتقبل أن تكون وزارة المعارف جاهلة . فقد تولى قيادتها كثيرون من السادة العلماء الذين شهدت لهم مصر بالسبق والتفوق في ميادين العلم ، وشهد لهم الشرق العربي ، وشهدت لهم أوروبا .

وكثيرون من حضراتهم ذووا صيت علمي دولي عجيب ،
وكثيرون من حضراتهم مثلوا مصر في مؤتمرات علمية عالمية .
فكانوا نجوماً مشرقات في سماء الحضارة والرقى والتقدم العلمي الممتاز .
وكثيرون من حضراتهم ذووا ، فضل معروف على المكتبة العربية
التي حفلت بآثارهم في الأدب والعلم والسياسة والاقتصاد
والاجتماع والشرائع والأديان والأخلاق .

وكثيرون من حضراتهم ملأوا الأندية العلمية ، وقاعات
المحاضرات والدرس ثقافات عميقة موحية كان لها أبعد الأثر في
استنارة كثير من المثقفين .

وكثيرون من حضراتهم قد تلقوا ثقافتهم في أوروبا وأمريكا
وزاروا الشرق العربي ، واتصلوا بالعالم أعمق اتصال وتعرفوا من
غير شك إلى نظم التعليم في الشرق وفي الغرب ، وأحسوا إحساساً
مباشراً بما يصلح به أمر معارف مصر وما لا يصلح به أمرها ، وخبروا
من طرائق التربية والتعليم ألواناً وأشكالاً ربما عز على الكثيرين
من المحدثين أن يصلوا إليها أو يساموها .

فهى إذن ليست وزارة الجهل ، وهى إذن قد خلصت من هذه
التهمة وهى منها براء .

وإذا كانت وزارة المعارف تنفى الجهل عن نفسها ، وتستعيز

بإلله من هذا الداء الخطير ، وتعلن على العالم أجمع أنها تعرف من
شئون التعليم أكثر منا يعرف المصريون جميعاً ، وأن وزراءها
العلماء قد طافوا بجميع دول العالم وعرفوا سياستها ونظم التعليم فيها
وأن في ديوان وزارتها عقولا ، وأدمغة سوف يتحدث التاريخ
عن قوتها وقدرتها وجبروتها .

وإذا كانت وزارة المعارف تزعم أنها قد درست جميع نظم
التربية في العالم الحديث ، وأنها أحاطت علماً بأسرار فلسفاتها !! .
فلماذا لا تزال تعالج مشاكلها التعليمية بسياسة مضطربة خرقاء
حتى الآن ؟ .

ولماذا لا يزال بعض ساداتها ، وكبرائها يؤمنون بحصر العلم في
أضيق الحدود ؟ .

لماذا تحارب كل ذي رأى جديد ، أو دعوة قد يفيد من ورائها
التعليم ؟ .

لماذا تغرس يديها البلهاءوين بذور الطائفية ، والخلاف ، وتبادل
الخصومات بين المعلمين ؟ .

لماذا توزع الثقافة بمقادير على المعلمين فتترك المجال للطعن في
أكفأهم ؟ .

لماذا تصر على اختيار المفتشين من المعمرين الذين بليت ثقافتهم
وذا بت أشخاصهم ؟ .

لماذا تعمل باسم السياسة على كسب جميع الحركات الإصلاحية
التي يقوم بها المعلمون بين الحين والحين ؟ .

لماذا تقف من المعلم موقف العداء فتطعمه حيث لا تشتهي
وتجلسه حيث لا يستريح ؟

ولماذا سمح وزراؤها بتراكم الظلمات فيها دون غيرها من
الوزارات حتى أصبحت أجدر بأن تسمى وزارة المظالم ؟ .

ثم لماذا يحبن وزراؤها عن الصراخ في وجه الدولة مطالبين
بازدياد ميزانيتها ولو على حساب الجيش والبوليس ووزارة
الصريجات ؟ .

هي مقصرة إذن ولم تنهض بواجباتها .

وهي بتقصيرها تمكن لسياسة « دنلوب » سياسة الاستعمار من
إطباق مخالبيها على أعناق المصريين جميعاً ، تعتصر دماءهم حين
تعتصر قلوبهم وعقولهم .

هي إذن وزارة تخدم الناصبين أكثر مما تخدم الشعب .

وإذا كانت تلك صفاتها فهي وزارة خائنة . يجب أن يعاد
ساداتها وكبرائها فوراً إلى المدرسة الواعية الجديدة ليلقنوا فيها كباراً
من مبادئ الوطنية ، والإيمان بالشعب ما حال « دنلوب » بينهم ،
وبين أن يعملوه في الصغر .

إننا لم نبرح أما كننا ، ولن نبرحها بعد ، مهنتنا هي التعليم ،
والتوجيه والتربية .

وإننا مستعدون لأن نعلم الوزراء كما علمناهم من قبل أن هناك
وطناً مظلوماً اسمه « مصر » .

وأنه باسم هذا الوطن يجب طرد جميع الوزراء الذين يغفلون
العمل لا علاء شأنه ، ولو لحظة ما .

أغلقوا المعاهد الابتدائية

بدون قيد ولا شرط . وأغلقوا معها جميع مدارس المعلمين
والمعلمات الأولية . أغلقوا جميع المدارس والمعاهد التي يخرج منها
معلمون يحملون نصف شهادة أو شهادة متوسطة كما يسمونها .

إن الذين يتخرجون في هذه المعاهد والذين تسميهم الدولة
« أنصاف معلمين » صالحون من كل وجه لأن يسابقوا الدولة كلها
في نيل أكبر قدر ممكن من الثقافة والعلم ، وأن يكونوا ممتازين فيه ،
وصالحون من كل وجه إذا مكثوا أن يبرزوا كثيرين من غيرهم ،
فأطلقوا هذه الكفايات من سجونها الضيقة الحقيرة قبل أن
يحطموا جدرانها .

أطلقوهم في ميادين المعرفة أحراراً وافتحوا أبواب الدرس

أمامهم وسوف تروى الإنتاج المريع الرائع من هؤلاء الذين لا يملئون أعينكم.

أغلقوا هذه المعاهد جميعاً لأنها بثقافتها الحاضرة وأوضاعها الحاضرة ومستقبل خرجها مادياً وأديباً ونظرة الدولة إليها من العلماء كل هذا يمس خرجها مساً سخيلاً مؤلماً ويؤذيهم في كراماتهم فأغلقوها لتكفوهم معرفتها .

إن المعلم الأولى بإسادة المعارف يضيق بشهادته التي فرضتها عليه الدولة ثم غيرته بتقصصها وضعف بنفائيتها .

إنه يضيق بها ويسبح في أرحب الآفاق . يريد أن يظفر بعلم واق ومؤهلات أرقى .

إنه يطلب ويلج في الطلب أن يدخل « كلية دارالعلوم » ليحفظ كرامته العلمية بين ذوى الثقافات فلماذا تقفون دونه ؟ .

أما زملاؤنا من خريجي معاهد المعلمين الابتدائية فأعتقد بقوة وبقين أنهم جميعاً « يسخطون » أشد السخط ، وينفرون أشد النفور من هذا اليوم المشئوم الذى ساقهم القدر فيه إلى هذه المعاهد فدخلوها مخدوعين بها .

إنى أهيب بهم أن يسخطوا ويضيقوا إن لم يكونوا ساخطين ولا ضائقين ، وأهيب بهم أن يتبرموا بوضعهم إن لم يكونوا مهتمين به .

فإن من المهانة والزرارية بهم أن يقفوا بباب الدولة يقدمون انفسهم ويعرضون شهاداتهم ، ويطلبون ثمنها ، فلا تلتفت إليهم الدولة إلا كما يلتفت التاجر الدنيء الجشع إلى بائع ذى حاجة جاءه في سوقه ليقول اشتر مني ، فيساومه اللص بما يقصم ظهره فإذا استنصفه البائع المسكين ثار اللعين وزجر ، وقال : أتريد مني ان آخذ بضاعتك المنحطة بسعر النظيف العالي ؟ .

إن من المهانة أن تساومهم الوزارة على ثمن شهادتهم بقسوة وزرارية ، فإذا استنصفوا لأنفسهم وطلبوا السادسة بدل السابعة ثارت الوزارة وقالت ماذا نمنح ذوى المؤهلات العليا إذا منحناكم السادسة ؟ .

إنى أطالب الدولة بإغلاق هذه المعاهد إذا كان في بقائها إذلال خريجها .

إنهم جميعاً يتململون في مضاجعهم ، ويضجون بالألم والأسف الشديد وخصوصاً من دخلوا المعهد من بينهم حاصلين على « التوجيهية » . ففرق عام واحد أنزلهم من السماء وعلقهم في مهبط الريح . إنهم يعتبرونها مأساة بالنسبة إليهم ، وليس منهم من أتاحت له فرصة الخلاص من هذا الوضع المهين بالدراسات أو غيرها إلا سعى إليها .

وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون ممن تمسخهم الوزارة وتشوههم

بيدها ، ثم تنفر أمام الدولة من هذه الخلق المسيخة المشوهة .

إننا نريد أن يخرج جميع المعلمين من معهد واحد .

نريد أن يحملون شهادة واحدة ولقباً واحداً .

نريد أن تنطبق كلمة معلم بجميع حروفها على كل من يمسك
« الطباشير » ويصحح الكراسات .

نريد أن نعين الوزارة على التخلص من أزمة تسعير الشهادات
والمساومة عليها .

نريد أن يكون جميع معلمي الدولة متساوين أمامها في درجاتهم
العلمية ، وفي قيمهم المادية ، وفي مستقبلهم العام والخاص . لا يفرق
بينهم إلا نوع العمل الذي يرغبون في مزاولته .

ولهذا يجب أن تكون جميع المعاهد التي تخرج المدرسين
معاهد عليا .

وأن يلغى من الوجود كل معهد « واطى » يشعر خريجوه
أو تشعرهم الدولة أنهم دون غيرهم .

تعليم الدين

وإذا كانت وزارة المعارف طوال حياتها الماضية قد نجحت في أن تخرج للدولة متعلمين كثيرين . ومثقفين قليلين ومستنيرين أقل !! فهي لم تنجح مطلقاً في أن تخرج للدولة رجلاً واحداً تهينه طبيعة التعليم في وزارة المعارف للاعتماد عليه .

إن جميع الذين علمتهم وزارة المعارف واستأثرت بتعليمهم ، ولم تشاركها في صقلهم وتدعيم طبائعهم مؤثرات أخرى : هم بدون استثناء مجموعة رخيصة من الشباب المائع الرخيص الذي لا يصلح لشيء . والذنب في الواقع ليس من صنعهم ، وإنما هي جناية الطرطشة الفكرية والثقافية التي تنسج بها برامج وزارة المعارف .

هذه البرامج التي يطالعها التلميذ منذ السنة الأولى حتى ينتهي فلا يكاد يظفر من مطالعتها بمثل أعلى واحد ينير جوانب نفسه ، ويحدث في فراغها نوعاً من التركيز .

فلا هي تثير في التلميذ قومية ، ولا مصرية ، ولا تثير فيه مسيحية ولا إسلاماً ، ولا تخلق فيه من يحب لغة بلاده ولا من يبغضها . وإنما هي كما قلت طرطشة مهلكة تهدد إيمان التلميذ ، وتعصف باستقرار نفسه :

والغريب أن وزارة المعارف تظهر إهتمامها الشديد الزائد بحل مشكلة « وقت الفراغ » عند التلميذ في نفس الوقت الذي تعمل فيه هي وبرامجها على تفريغ نفسه وعقله ومشاعره طوال العام .

ولا أريد الآن أن أتحدث عن برامج وزارة المعارف فسوف أتناولها بعد ، وإنما أقصد إلى الحديث عن تعليم الدين بمدارس المعارف المصرية التي يدين تلاميذها بالمسيحية والإسلام .

مما ليس فيه شك أن تلاميذ وزارة المعارف - أعني تلاميذ المرحلتين الأولى والثانية - أشد تلاميذ الدولة حاجة إلى تعمق دراسة الدين وتذوق أسرار روحانيته لتركيز نفوسهم وضمان القرار لها .

فالتلميذ في هذه السن وخاصة عند المراهقة تتطلع نفسه إلى آفاق رحاب من النظر والتفكير تسيطر عليها العاطفة ويستبد بأصلها الوجدان .

وهو في لحظاته تلك أكثر الناس قلقاً وضيقاً وتسأولاً وأكثر الناس رغبة وشوقاً إلى فهم دقائق العالم المجهول وسبر أغواره . وهو أكثر الناس إعجاباً بالمثل العليا وألوان البطولة وبكل ما يهز شعوره ويملأ عليه جنبات نفسه الفارغة الظمأى .

وهو في هذه السن أيضاً أكثر التلاميذ تسليماً بما يلقى إليه . وأكثرهم إيماناً به وتعصباً له وتفانياً في سبيله .

وهو أكثر الناس شوقاً إلى إشباع عاطفته بأى طريق ما .

فإن أنت ملأت هذه النفس ديناً وإيماناً فقد ملكت قياد صاحبها واستوثقت من طاعته وضمنت استجاباته ، وتكون إذن قد ألقيت على هذه النفس الحائرة هدوء المعرفة المقدسة واطمئنانها الخافز ، وتكون أيضاً قد هدهدت عواطفه الفجة على نداء البطولات والمثل العليا ، والحياة النظيفة والأخلاق والدين ، وبهذا تبتعد عنه أفكار السوء ، ويصبح قرار نفسه نظيفاً سليماً لا يؤذى وإنما يدفع إلى الأمام خطوات .

أما إذا لم تستغل هذه الحيرة لتطفىء شوقها بالدين ، ولم تحفتمل بخليجات هذه النفس ، وتركتم هذا التلذذ يطفىء رغائبه من أى ورد يصادفه فقد أسأت إليه بما لا يمكن التجاوز عنه ، لأنه لن يتعقل ، ولن يختار ، ولن تكون لديه للقدرة على المقارنة والتفضيل ، وسوف يهوى من غير شك إلى زمهرير الشهوة القاتلة ليشلج به سعار عواطفه المشبوبة الحرى .

سوف يسقط ، ولن يجدى فى إنهاضه من سقطته أن تسقيه ذوب القرآن ولا مزامير داود .

وإذا كان من الميسور أن يستعيد الإنسان أى شىء ضاع فإن من المستحيل أن تستعيد الروح الشارد أو الإيمان المفقود .

إن قلب الشباب لا بد أن يمتلىء . فإذا لم نعلمه بالدين والبطولات

فسوف تغتاله غضباً جميع العناصر البشعة مما يصوغه إبليس .
إذن فوزارة المعارف مسؤولة أمام الدولة عن هذه الحيرة
المهلكة التي يقاسيها شباب هذا الجيل والتي تضيق الأمة بمتاعها
وويلاتها .

هي مسؤولة عن زعزعة الثقة في نفوس شبابها وإشاعة البلبلة
والقلق في أفكارهم .

إن المدارس الدينية في مصر - وليس منها الأزهر - قد نجحت
أروع النجاح في خلق الجبابرة الأشداء ، وتقديمهم كمواطنين إلى
الدولة في أصلح صورة يكون عليها المواطنون .

فقد خلقت منهم جميعاً أصحاب رسالات ، ومبادئ ومثل ،
يجودون بالنفس إن ضن الجواد بها ، ويحسنون القيادة إذا أسلمت
إليهم ، ويضربون المثل الرائعات في الفداء والتضحية .

وأعني بهاتين المدرستين . الإخوان المسلمين ، وجمعية
الشبان المسيحية .

فأما الإخوان فالدولة كلها تعلم كيف كانوا يخلقون من العامل
البسيط الساذج في مدى أسابيع داعية وقائداً وصاحب رسالة .
وكيف كان شبابهم في فلسطين أصلب في الجندية عوداً وأقوى في
الدفاع مراساً ، وأكثر عند الخطر تفدية وتضحية .

وإذا كانت الدولة لا تعلم ، أو تريد ألا تعلم ، فقد علم الإنجليز

هدى خطر التربية الدينية على وجودهم حين أوحوا إلى عصبة مجرمة
من خونة المصريين فأنزلوا بهم المحن .

وأقسم أن لو سلكت وزارة المعارف طريقة الإخوان في
تربية أبنائها مارأيت على ظهر مصر رقيعا ، ولا غرا ولا شبه رجل .
بل مارأيت على ظهرها جاهلا ولا شريدا ، ولا محروما من الثقافة .
وأما جمعية الشبان المسيحية فيكفي لتقديرها وضرب المثل بها
أن تعلم أن أصغر ولد من أولادها يستطيع في سهولة ويسر أن
يقود حياته في أى بقعة من بقاع الأرض التى خلقها الله دون عون
ولا سند . ويستطيع كما يقولون أن يفجر البنايع فى الصخر
الأصم تدفعه إلى شق الطريق تربية طيبة صالحة بنيت على أساس
من الصحة والدين والأخلاق .

وإذا كانت وزارة المعارف لا يهتمها أن تدرس الدين فى
مدارسها لأنه لا يهتمها أن تقدم للدولة رجولة ورجالا ، فإنى أتوجه
إليها باسم معالى وزير الداخلية أن تربي تلاميذها تربية دينية قوية
لتخلق فيهم الروح العاصم الذى يساعد مدير الأمن العام على
مقاومة الأجرام .

وإن أتحدث إليها الآن عن القرآن كدستور للدين وللدولة ،
ولا عن الإنجيل كدعاء للسلام والمحبة ، ولكنى سوف أنقل إليها
ما قرره أصحاب النظرية الإيطالية فى تأثير العوامل الاجتماعية

والاقتصادية على الاجرام حين أكد أحدهم « جازو فالو » أهمية
التربية الدينية في تهذيب روح الأفراد ورفع مستوى إحساسهم
الخلقي فقال : « إنه لمقاومة الاجرام » يجب رفع مستوى الإحساس
الخلقي (Sens MORAL.) بالتعليم الصحيح القائم على أساس ديني لأن
أسباب الجريمة وموطنها الأساسي هو ضعف التكوين الأخلاقي
لا العوامل الاقتصادية أو الأحوال الاجتماعية .

الأزهر

وهذا الأزهر الشريف يجب التفكير الجدى السريع فى إلغاءه لأنه بوضعه الموجود خطر على الدولة وداء متوطن يجب القضاء عليه .

وأحب قبل أن أمضى فى الحديث أن أقرر أنى من أشد الناس إيماناً بحق الأزهر علمائه وطلابه فى الحياة الكريمة كآى من المواطنين الذين ننشد لهم حياة فى أرقى المستويات الاقتصادية والاجتماعية . وإن أجيد التفريق بين أشخاصهم كمواطنين ، وبينهم كأصحاب رسالة لم يقدر لها أن تفيد فى هذا الوضع .

كما أحب أن أضع بين يدى القارئ حقيقة مؤلمة هى أنى قد سلخنت من حياتى تسع سنوات فى هذا الأزهر قبل أن أدخل دار العلوم .

ومبعث الألم من هذه الحقيقة أن أبسط قواعد الوفاء للمعهد الذى علمنى وأوصانى إلى حيث أنا الآن توجب على أن أكون أول الدافعين عنه ، والحافظين لحدوده ، ولكن : ما حياتى ؟ ! ! وكل يوم يزداد إيمانى بأن هذا الأزهر هو أحد حجرى العثرة فى سبيل نهضة الشعب واسترداد حرية وثورة على الفساد .

ولو سألتني رأيي عن سبب تأخر المصريين لأجبتك دون تردد .
أن سبب تأخر مصر . الأزهر والانجليز .

ومبعث إيماني بهذا الرأي وأنا أعالج الأمر بروح العلم ، أن في
الأزهر حمى رسالة خالدة لو صدع الأزهر يون بها وعلوها الشعب
لاستحالت مياه القنال جحشاً يروّع الغاصبين . لكنهم هانوا
فضاعوا وأضاعوا .

وموطن الخطر أن طلاب الأزهر جميعاً من الأرياف . . .
حيث تنتشر الظلمة البشعة المريعة يتردى فيها أهلونا ، وحيث الجهل
المطبق الشديد الغمة يعمى العميون ويحطم القوي ، وحيث الفقر
اليأس يكفر بالله ويشيع الهوان والذل .

فلوقد ربى الأزهر طلابه التربية الدينية الحقة ، ولقنهم ثورة « محمد
صلوات الله عليه » على إحناء الرعوس لغير الخالق الأعظم ، وثورة
عمر على أن نعطي الدنيا في ديننا . ثم ثورة أبي ذر الغفاري على
« الرجل لا يجد قوت يومه ثم لا يخرج على الناس شاهراً سيفه » .
لوربى الأزهر طلابه هذه التربية لكان إيمان الفرد كافياً لأن
يُنقل إقليماً بأكمله من الظلام إلى النور ولـكانوا من غير شك حماة
للشعب من الجهل القاتل والفقر المكفر . لكنه لم يفعل ، وفي
هذا خطر .

والأزهر أيضاً كأكبر جامعة إسلامية عتيقة يهز بصورة تقليدية

مشاعر الشرق العربي في جوانبه الإسلامية كلها حيث تفد إليه
البعوث من أبنائها يطلبون في رحابه رسالة الله إلى الحيارى الضائعين
من عباده .

وكان يمكننا أن يتناول الأزهري مقاليد الثقافة الدينية الخالقة
في هذه الدول ليوحيه أرواح شعوبها إلى النهضة الكبرى ، ولكنه
لم يفعل ، وفي هذا خطر .

والأزهري كان يستطيع أن يهز أعطاف مصر من أقصاها إلى
أقصاها بالتربية الروحية البناءة ، وأن يقدم لمصر وللشرق كثيرين
من أمثال جمال الدين الأفغاني ، ومارتن لوتر ، ومحمد عبده ،
وحسن البنا ، وآية الله كاشان وغيرهم من محرري العميد الذين
لم يكن لهم نشاط إلا أن يعمروا الأرواح بالإيمان ، ولم تكن لهم
أسلحة إلا أن يقودوا ويرشدوا ويوجهوا بما أنزل الله مما فيه خير
الناس ، ولكنه الآن مملق وعقيم ، وفي هذا خطر .

وإذا كنت أمقت جميع الذين يصرفون الشعب عن غايته ،
ويبطئون به عن النهاية السعيدة ، ويكونون عوناً للمفسدين عليه ،
فإنني أمقت الأزهري من كل قلبي ، وأشرع معولي مهما كان ضعيفاً
لأحطم به في جداره فإن الأزهري فيما أؤمن به قد أصبح رمزاً
لهؤلاء جميعاً .

إن التعليم في الأزهري بوضعه الموجود الآن خطر يهدد

نهضة الشعب فيجب إلغاؤه فوراً ، ويجب القضاء عليه ، لأنه يمزق الوحدة الثقافية بين المثقفين ، حين يقتطع هذا الجمهور الضخم من أعز أبناء الشعب فيفنى شبابهم ، ويقتل حيوياتهم في تعمق خرافات ليس فيها غناء .

فالواقع أن طلاب الأزهر في شبهه عزلة عن المجتمع الذى يعيشون فيه، عزلة لا يريدوا أحد منهم ، وإنما تريدوا هذه «الانتبكة» الثقافية التى يوهمون بأنهم الأمينون عليها .

ولست أنسى المعركة القريبة التى قامت على صفحات « الرسالة » حول برامج الأزهر ومؤلفاته وكتبه ذات الطابع الأثرى التى ما يزال يدرسها الطلاب فى مصر ، وفى القرن العشرين .

لست أنسى فى هذه المعركة أن أقوى أصحابها حجة وأعنفهم ثورة وأشملهم بياناً كانوا أزهريين بل كانوا طلاباً على الدقة .

ولست أنسى أيضاً حين كنت طالباً بالأزهر أننا قمنا بشورة عنيفة على نوع الثقافة التى كننا نلقاها ، وطالبنا بإيمان وإصرار تسوية الأزهريين بغيرهم من متعلّى الدولة فيما يدرسون من ثقافات وفينا يستمتعون به من ميزات وحقوق .

ولست أنسى كذلك أن الأزهريين قد طالبوا منذ سنوات بدخول الكلية الحربية ، وكلية الحقوق . ليكونوا من شبابها ولتزهو نفوسهم لحظة بأنهم يقدمون فى سبيل وطنهم شيئاً .

فلما حدثتهم الدولة أن الثقافة المدنية ضرورة لازمة للطلاب
في هاتين الكليتين ثاروا متذمرين على ثقافتهم العفنة التي لا تؤهل
صاحبها لشيء إلا أن يكون من المشايخ ، وما ذلك بشيء .

ولقد كان بعض الطلاب يتطرفون في الأحلام ويطلبون إلى
أشياخهم أن يسعوا لدى الدولة لتمنحهم حق دخول كلية الطب
ليستعيدوا تاريخ طلاب الأزهر في بعثات « محمد علي » وكان
الجواب بالطبع مهيناً قاسياً على الكرامة الثقافية في نفس كل طالب
حين يسمع أن هناك شيئاً غير ثقافة الأزهر يسمى الثقافة المدنية
لا تعترف الدولة إلا به ، ولا تفتح أبواب جامعاتها إلا له .

ومن العجب أنه حين أتتحت الفرصة لبعض طلاب الأزهر
أن يجربوا ما يؤديه المثقفون من بقية أبناء الدولة في ميادين
التدريب العسكري الجامعي مثلاً لم يكونوا أقل كفاءة ، ولا تميزاً ،
ولا استعداداً للقيادة من أى مثقف آخر .

والذى يعيننى من كل ذلك أن أقرر للسادة الأفاضل من كبار
المشايخ : أن طالب الأزهر يعيش الآن في القرن العشرين وأنه
لا يستطيع العيش في جب ، وأنه مكرب على أن يتصل بالناس ليعيش
كما يعيشون ، ويفكر كما يفكرون ، ومن حقه أن يطمع فيما يطمع
جميع المثقفين فيه .

فإذا خطر له أن يكون طبيباً ، أو مهندساً ، أو صاحب

مصنع وصدمته الدولة بأن ثقافته التي أفنى عمره فيها ، وحبس نفسه على تحصيلها لا تؤهله من ذلك كله شيء لأنها غير صالحة لشيء .

إذا ردت الدولة هذا الرد المهين . فانه من غير شك سوف يلعن أهله الذين اختاروا له من أماكن الدرس مكاناً محقراً لا تعترف الدولة بما يدور فيه ، وسوف يلعن أشياخه الذين غرروا به وخدعوه عن نفسه وعن الواقع المر ، وسوف يلعن الدولة كلها بنظامها الفاسد الذي يسمح ببقاء هذه « الاتيكات » يشقى بها الشباب .

ومعنى هذا أن بقاء الأزهر بمعزل عن الثقافة المدنية سوف يعقد نفسيات الطلاب ، ويملؤها بالسخط والاضمات والثورة على أنفسهم ، وأهلهم وأشياخهم والدولة ، وهذا خطر كبير يتهدد مصر من جمهور من الشباب كبير .

وقد يحدث كرد فعل لما يعانيه الإنسان من شعور بالنقص أن يصاب بالغرور البغيض الأجوف الذي يسلب المصاحب به روح العلم ، وهى روح الأخلاق واطمئنان النفس فيثبت فى مكانه دعياً صفيقاً ينهار ، ويدفع الآخرين بكلتا يديه للهاوية .

والمصابون بالغرور فى الأزهر ليسوا هم الطلاب .

فالطلاب فى الواقع ساخطون على حظوظهم ، أعظم السخط ضائقون بحيواتهم أعظم الضيق ، يعرفون وضعهم فى المجتمع

ويعترفون به ، يعترفون به بصراحة تهزك إعجاباً بهم ، وتقديرآ لهم حين تستمع إلى الطالب منهم يحدثك عن ذات نفسه وعن إحساسه القلق وأنيته المكبوت فيقول لك :

إننا ياسيدى لسنا من أحياء هذه الأمة ، إننا نفرض أنفسنا فرضاً على الدولة .

إن ثقافتنا لا تملأ نفسى ، لهذا قررت أن أدرس ، لقد اتصلت بالمعهد البريطانى وأصبحت طالباً فيه ، أريد أن أبدل مكانى ، وأمد آفاقى وأحمل السلاح الذى يتقاتل به الناس .

إن طلاب الأزهر ليسوا مغرورين ، ولكنهم فى الواقع ذخيرة جبارة يمكن لمصر أن تعتمد عليها إذا استغلت استغلالاً طيباً ، إنهم جميعاً يحاولون أن يوجهوا مستقبلهم توجيهاً خاصاً بهم كأفراد بعد أن افتقدوا من يوجهونهم كمجموع .

وإن هؤلاء الطلاب قد غمر كثيرين منهم الوعى الجديد ، وأصبح من العسير الشاق أن يخدعوا .

ومهما يحاول السادة الأفاضل أن يمنحوا شيخ الكلية لقب « عميد » ويخلعوا على المدرسين كلمات « أستاذ ، وأستاذ مساعد ، ومدرس حرف « ا » وما شاكل ذلك ، ومهما يحاولوا تسمية « كلية الشريعة » باسم « كلية الحقوق الإسلامية » فلن يستطيعوا مطلقاً خداع الطلاب عن الواقع .

إن طالب كلية الشريعة مثلاً يعرف جيداً أن الدولة لا تسمح له أن يكون ممثل الاتهام في قضية رجل يسب الدين في الوقت الذي تسمح فيه لحامل « ليسانس الحقوق » أن يترافع أمام المحكمة الشرعية بجميع أنواعها ، فما معنى هذا ؟؟ .

إنه اعتراف صريح من الدولة بنقص الثقافة الأزهرية ، وهو يقصم ظهر الطالب المسكين الذي سلب من عمره المكود خمسة عشر عاماً أو تزيد يعيش أبأس عيش ويشارك في الدرس الفارغ بأقصى جهد .

ثم إن الأزهر بطبيعته مهدد بالإلغاء . والانقراض لأسباب منها .
أولاً : أن طلاب الأزهر جميعاً يريدون أن يستمتعوا بكل الحقوق التي يخولها الدستور للمواطنين ، وهم يعرفون أن بقاءهم في الأزهر يحرمهم الكثير من هذه الحقوق ، ويحول بينهم وبينها فهم جميعاً يحاولون جاهدين أن يغيروا مجرى حيواتهم كل على طريقته الخاصة .

ولست آمن بعد أن يجيء اليوم الذي تحاول فيه إدارة الأزهر أن تستبق الطلاب في معاهدهم فلا يرضون ويخرجون منها واحداً واحداً ليتروا عماراته الشامخة يستمتع بجمالها السادة الأفاضل .
ثانياً : بعد تقرير مجانية التعليم انصرفت الكثرة الغالبة من

أبناء الشعب إلى موارد الثقافة المدنية الحية ذات المستقبل المضمون ،
وليجرى عليهم على أسوأ الفروض ما يجرى على غيرهم .
فلن يفكر في الأزهر أحد إلا الخلفون ممن فاتهم الركب
لكبر سنهم مثلاً ، أو من انعدمت لياقتهم الطيبة فكانوا غير صالحين .
ثالثاً : إن الثقة الروحية برجال الدين الذين يمثلهم الأزهريون
قد زلزلت زلزالاً شديداً .

فمن المعروف أن لرجال الدين في العالم تاريخاً أسود لجنتهم
على حريات الشعوب ونهضتها واستقلالها .

أما في مصر فرجال الدين لهم وظيفة يعرفها المصريون جميعاً
وهي الافتاء . . . الافتاء بحسب الطلب . . . وأيا كان الطالب !! .
فهم مثلاً يدافعون عن « الببسى كولا » لأن العلم الشريف . . .
قد أثبت بتحليله . . . الكيماوية . . . الشرعية أن هذا المشروب
من المشروبات الشريفة الخالية من ميكروب الاحتلال الاقتصادي
الذي حرمه الله .

فإذا كان الأزهر كما قلت مهدداً بمثل هذه العوامل ، فمن الخير
أن تسرع الدولة إلى التفكير في إلغائه إبقاء على كرامته كأعرق
جامعة دينية يتطلع إليها المسلمون في جميع أقطار الأرض بالأكبر
والهامة .

والعلاج ؟ ؟

أولاً : يجب فصل منصب شيخ الأزهر عن جميع الأعمال التي تتصل بالأزهر كمدرسة من قرب أو من بعد ، واعتباره مركزاً روحياً عالياً ينظم علاقات المسلمين على وجه الأرض بمصادر تشريعهم وعقائدهم .

والذي أقصد إليه من وراء هذا الفصل أن نسمو بقداسة المركز الكريم عن أن تكون رعايته ، وإشرافه وقفاً على الأزهر بين دون غيرهم من المسلمين في بقاع الأرض .

ثم إن طلاب الأزهر بالوضع الموجود يعتبرون شيخ الأزهر ملكاً لهم ، ويرون من حقهم أن يشاركوا في تقرير مصيرهم باختيار الرجل الذي سوف يرأسهم .

وهنا تتدخل السياسة بين الصفوف بفتنتها البغيضة ، فلا تكاد تنتهى للأزهر بين خصومة ، أو تفرغ لهم ثورة ، وهذا مواطن خطر على وحدة الطلاب كمواطنين أولاً ، ثم كأبناء معهد واحد ثانياً ثم على أعمارهم العلمية التي تضيق في الاضراب والفوضى من جهة ثالثة .

ثانياً : يجب إلغاء القسمين الابتدائي والثانوي في الأزهر

فوراً ومنذ اليوم . حتى لا يكون في الدولة ما يسمى « ابتدائية الأزهر أو ثانوية الأزهر » .

والطريق إلى هذا الإلغاء هو تسليمهما فوراً إلى وزارة المعارف لتعلم طلابهما بما يتعلمه بها بقية أبناء الشعب . حتى لا يشعر الأزهرى بالغربة الثقافية وهو في وطنه وبين أهله ، وحتى يستطيع التجاوب مع الآخرين فيما يشعرون به ، وما يفكرون فيه ، وحتى يستطيع المشاركة الفعلية في الحياة المصرية بدل أن يعيش مجهولاً في زوايا النسيان يقرأ مجموعة المتون ، وحتى يستطيع إذا ثقف الثقافة المدنية التي تعترف بها الدولة أن يكون حراً بعد حصوله على « التوجيهية » أن يختار مثلاً بين كلية الشريعة ، أو كلية الحقوق .

ففي هذا اليوم لن يوجد من يقف في طريق آماله ليقول ... لا . وأحب قبل أن أختم هذا الفصل أن أتوجه إلى السادة الأفاضل علماء الدين بهذا السؤال بصفته استفتاء :

هل حضراتهم مؤمنون بأن السياسة التعليمية التي يسير عليها الأزهر الآن في صالح الدين ، وصالح المسلمين ؟؟ .

إذا كان الجواب ... لا .

فماذا يسكتون عليها وهل السكوت حلال ؟؟ .

وإذا كان الجواب ... نعم .

فلماذا لم يرغموا الدولة كلها على الأخذ بها إعلاء للدين، ورعاية

لصالح المسلمين؟؟ .

وهل تقصيرهم هذا حرام؟؟ .

أريد باسم الدين . والوطن . أن أطمئن .

قواد الحركات

وقد يسألنى القارىء ، وما دخل زعماء المعلمين فى سياسة التعليم ؟ وما خطرهم عليها ؟ .

وهم إذا أحسنوا كانوا كغيرهم من الخيرين يصلحون فى السياسة ولا يفسدون ، وإذا أفسدوا لم يكونوا شرأ من المفسدين الذين غمروا البلاد بفسادهم . فما خطر قيادة الحركات إذن على سياسة التعليم ؟ ؟ .

ولكن على القارىء الصديق أن يتصور معى حركة من حركات المعلمين عنيفة شديدة عارمة ، قام بها المعلمون يوماً يطلبون إلى وزير المعارف أن يرفع ظلامة المظلوم ، يحقق المساواة بين الطوائف ، ويصلح أخطاء سياسة التعليم .

ليتصور القارىء هذه الحركة العنيفة المجمععة ، وقد التقى زعمائها فى إحدى الأمسيات بالوزير نفسه ، أو رسوله ، وتفاهما بلغة السياسة ، واجتياز المأزق الحرج ، على أن تموت الحركة وينتهى الموقف عند هذا الحد .

وليس يعنينى هنا أن يقدر الوزير نفسه أو رسوله للزعيم ثمناً لاتفاقه ، أو لا يقدر له ، وليس يعنينى أن قد ساوم الزعيم أو لم يساوم . ليس يعنينى هذا فسوف أترك القارىء الصديق يتخيله ، أو يتكهن به .

وإنما الذى يعنينى . أن أتصور الزعيم من هؤلاء بعد اتفاقه مع الوزير نفسه ، أو رسوله يجيء إلى الثائرين الساخطين من أبرياء الزملاء فيصب على غليانهم ثلجاً مذاباً فى خسة وخداع . فتفتر بهما نفوس الثائرين ، وربما هزموا .

ليتصور القارىء الصديق معى هذه الجناية البشعة على حركة قامت لتدفع ظلماً ، وتحقق عدالة ، وتصلح أخطاء فما ظفرت بشيء ! . كم ييأس الساخطون ؟ ! وكم يضيقون بأنفسهم ويضيقون بالناس ؟ ! وكم يفقدون الثقة ؟ ! وكم يستأسد الظالمون ليزرعوا فى ظهور المخذولين أشواك الهون والمذلة ؟ ! وكم يتأخر الإصلاح ، ويحطم الرجاء فى الخير ؟ ! .

ثم كم يكسب الزعيم لقاء خيائته ؟ ! وكم يساوى ما يكسب القائد إذا خسر جنوده كل شيء وخسر من ورائهم شرفه ؟ ! ! .

الحق أنها مأساة يجب البحث عن جناتها ، وتقديمهم للحاكمه جزاء ما أجرموا فى حق مظلومين تراكت الظلمات فوق هاماتهم حتى خفضوها ذليلة ، وجزاء ما طوعوا لآكلى حقوق الناس أن يستمرئوا جسد المعلم المسكين ، ويستطيبوا مذاقه ، وجزاء ما أتاحوا للسياسة الفاسدة أن تستوثق من الأرض بجذورها ، وأن يصعب اقتلاعها على طالبي الإصلاح .

ويجب تقديمهم للحاكمه على ماضربوا للناشئين من مثل سوء يشع قذارة وخزياً ما تحدث الناس عنه .

إني أطلب إلى وزير المعارف باسمنا جميعاً محاكمة « مجرمي الحركات » وليكن ذلك بدء عهد جديد من تربية الرجال يقول فيه الوزير المسؤول لمن يزلزلون بثوراتهم عرشه مطالبين بحقوقهم .
لماذا فشلت ثورتهم ؟ .

ولماذا تراجعتم ؟ .

ومن هو الخائن ؟ .

حتى يكون ذلك درساً يحفظ للنفوس الحرة النظيفة قدسيتها في زمن لا « يصل » فيه إلا الخونة الفارغون المجرمون .

وقد يطيب للقارئ الصديق أن يسألني مرة أخرى لا عن الزعماء ولكن عن المعلمين أنفسهم .

وكيف سمحوا لهذه الخفافيش أن تعمل في الظلام وراء ظهورهم وأن يستغلوهم ؟ .

ولماذا لم يسقطوهم ؟ .

ولماذا لم يشوروا عليهم ؟ .

وكيف طال الزمن بهذه الغفلة ؟ .

وهذا في الواقع ما أريد أن أعرض له .

وأحب مبدئياً أن أقرر أن جميع الوزراء وأشبهاء الوزراء الذين سهّلوا مهمة « مجرمي الحركات » أو سهّلونها ، والذين كانوا

عوناً لهؤلاء المجرمين بأى وسيلة من الوسائل على تضييع جهد كل حركة فى سبيل الإصلاح ، والذين آووا هؤلاء المجرمين ، وأغروهم ، وفتحوا لهم مكابتهم ، أو تلقوهم فى منازلهم ، والذين قبلوا معونة هؤلاء المجرمين ، باسم السياسة وبلغة « إنقاذ الموقف » . هؤلاء يجب اعتبارهم شركاء حقيقين فى الجريمة يحملون من أوزارها نصيبهم الثقيل ، ويجب اعتبارهم كذلك من أكابر المجرمين . وقد يعجب القارىء الصديق لماذا لم أشد عليهم ؟ ولماذا لم ألق على كواهلهم بالوزر كله بوصفهم من أهم أركانته ؟ .

هل أنا راع جانبهم ؟ .

هل أنا خائف منهم ؟ .

كلا فليس للخائن سطوة تهاب ولا جانب يرمى ، ولو كان وزيراً ، ولو كان شبه وزير .

وإنما الواقع أنى أصب جام غضبي على الزعماء والقواد خاصة لأن القائد النظيف الذى يسنده جمهور مصمم أعنف قوة ، وأصعب مثالا على كيد كل وزير ولو كان الوزير إبليس .

فعلى القادة وحدهم تقع تبعه الفشل ، وإذا فشلت الحركة فالقائد وحده المسئول .

فمن هؤلاء القادة ؟ ومن هم اللاعبون بمصائر المعلمين ؟ .

لن أذكر اسماً واحداً من أسمائهم . فربما كنت أنت أكثر من معرفة بهم ، وربما عاصرتهم أو شاركت في حركاتهم ، أو كنت من ضحاياهم .

ولكني سوف أرسم لأخلاقهم صورة عامة . سوف أضع مثالا ونموذجا لصفات الزعيم الخائن .

فإن برزت فيها ملامح من تعرف منهم فاحذرهم فانهم آفة ، ووباء . وإن لم تبرز فيها ملامح من تعرفهم فابحث عن الخائنين .

أخص ما يتصف به مجرموا الحركات هو الكذب ، الكذب الذي لا يقف عند حد .

والكذب في ذاته نقيصة لا تقرها مقاييس الأخلاق والفضائل فإذا أضيف إليه أن يكون بقصد الأيهاام والتضليل ، وتشويه الوقائع والحقائق ، بدأ اعتباره جريمة يسأل مرتكبها أمام القانون .

فإذا أضيف إليه مرة أخرى أن الجريمة فيه لا تقع جنائتها على الفرد ، وإنما تصيب بالشر مصائر الآلاف من الناس كان جريمة بشعة يجب مطاردة جانبيها ونفيه من المجتمع لأنه إذن يكون ممن يحاربون الله ورسوله ويسعون بالفساد في الأرض .

وللكذب عند « مجرمي الحركات » أسلوب غريب عجيب « يتقنون فيه إتقاناً ، ويحكيون أصوله حبكا شديداً حتى لتكاد تخدع بما

يقولون ، وغالباً ماتخدع وقد خدع كثيرون غيرك من قبل ، وسوف يخدع كثيرون غيرك من بعد فلا تبتئس فهم دجالون مهرة ، وليس من اليسير أن تكشف مستورهم . فهم لا يلقون إليك ما يريدون إلقاء ، ولا يتحدثون إليك بما يعرفون في سهولة ويسر كما يتحدث الناس .

وإنما يلقون ويدورون ، ويحاورون ، ويناورون ، ويأتونك من بعيد ، ومن بعيد جداً . حتى لتكاد تختلط أمامك المعالم والصور ويصعب عليك التمييز بين الباطل والحق .

وهنا في هذه الغمرة « يصطادك » الزعيم ، ويميل عليك ، ويهمس في مسامعك بصوت خافت جداً .. قيل .. لأن موضوع الحديث خطير لا ينبغي أن يعرفه كل شخص ، ولكنك أنت .. أنت أيها الضحية الجديد . قد أصبحت موضع الثقة ، ولهذا قد اصطفاك « الزعيم » واختارك إلى جواره ليس بذات نفسه إليك . إنهم دجالون مهرة ، فاحذروهم .

احذروهم حين تلقونهم ، واحذروهم حين يتحدثون إليكم ، وحين يتصلون بكم ، احذروهم ريثما يتم لنسا إعدام فصليتهم الدينية من بين صفوف المعلمين .

وأستطيع القارئ الصديق أن أحدثه حديث قصة وقعت بيني وبين دجال من هؤلاء في عام ١٩٤٩ لعلمها تمنحنا شيئاً من التسلية

بعد طول اصطناع الجسد الثقيل ، ولعل أصدق الملاح ما يأخذه
الفنان من واقع الناس .

كنت في هذا العام أسير في أحد ميادين القاهرة ، وجأة وقع
بصرى على صديق أحبه ، وما رأيته منذ طويل ، وكان صديق
يجلس في شرفة أحد الأماكن العامة مع « زعيم » من هؤلاء ،
تحف به « بطانته » .

وأقبلت على الجالسين وصاغتهم جميعاً فكانوا على كثير من
الأدب في رد التحية إلا حضرة « الزعيم » الذى لم يبد عليه أن قد
شعر حتى بقدم طارئ على المجلس الذى هو فيه .

وأحس صديقى ، وهو يعرف مبلغ حساسيتى . ويقضى لنفسى
فقدمنى إلى الحاضرين مقدمة كريمة أشعرتهم بوجودى وجأة
أكتشف « الزعيم » أنه أمام صيد ثمين - أو هكذا خيل إليه -
ولهذا قد صمم فيما بينه وبين نفسه على اقتناص الفريسة بالمشروع
وبغير المشروع من الوسائل فانظر ماذا حدث ؟ ! .

انتفض « الماهر الدجال » فى مقعده ، وحوّل نفسه جميعاً إلى
وأقبل على فى لهفة وشوق لست أدري من أين هبطا ؟ فلو كنت
أنت معنا لأيقنت بدون شك أننا صديقان حميان منذ أمد بعيد .
ولا يفوتنى الآن أن أقرر أن « للهرة الدجالين » قدرة عجيبة
شبه خارقة على تكيف مظاهرهم الانفعالية بالكيف الذى يريدون

وأنه لاصلة مطلقاً بين ما يختلج في قلب أى من هؤلاء ، وبين ما يرتسم على ملامح وجهه من تعابير .

وهذا صنف من الشخصيات ليثم وخطر يتعب الإنسان كثيراً في مراقبته قبل أن يستطيع درسه ، أو كشف مستوره .

المهم أن «الدجال الماهر» صفق بيديه ورجليه إن شئت ، وصاح بملء فمه يطلب «الجرسون» تحية لى . وأقبل «الجرسون» وطلبت فنجاناً من القهوة - وأنا في الواقع أحبها - ولكنك تعجب من إصرار «الدجال الماهر» على أن آخذ أى شيء آخر غير القهوة ، أى شيء يمكن أن يدفع في سبيله كثيراً تكريماً لى منذ ومتى هذا التقدير ؟ لست أدري .

إنه تملق العواطف .

إنه فن خداع الجماهير .

إنه الاستغلال الصحيح لمواطن الضعف في كل حي . إنه الآن يجري لاهثاً وراء نوازع الغرور في نفسه ويحاول أن يأتيني من مسالكها .

ولا أكتف القارىء الصديق أنى بادلت «الدجال الماهر» خداعاً بخداع فقد حرصت منذ هذه اللحظة على أن أعرف كيف يتعاملون ؟ وما هي حياثلهم ؟ وكيف يغترون بالزملاء ؟ .

ولم تمض لحظات حتى كان « الدجال الماهر » قد اطمأن إلى أنى غدوت أسير هذا الكرم النبيل من شخصيته الساحرة .

وصدّق « الماهر الدجال » أنى « وقعت » فأراد أن يضاعف إطباقه على بشباك جديد .

وبعد أن أقرب منى بمقعده، وتدانّت رأسانا كأننا نتناجى قال :
لقد طلبنى الوزير منذ أيام ، وتحدث معى فى شأنك طويلا .
فى شأنى أنا ؟ ! لماذا ؟ .

نعم : وهو ساخط عليك أشد السخط ، وكان مصمما على التنكيل بك .

بى أنا ياسيدى ؟ ! ! ولماذا ؟

لماذا ؟ ! ! ألم تهاجمه مهاجمة عنيفة فى مقالاتك التى كنت تكتبها فى « الكتلة » تحت عنوان « لحساب من ياوزير المعارف ؟ » وكنت توقعها بامضاء « درعى » أليس كذلك ؟ إن الوزير يعلم كل حركاتك وسكناتك ، وكان قد تقرر نقلك إلى قنا ، ولكنى قد ألغيت هذا القرار وضمنتك على مسئوليتى .

صحيح أنى هاجمته ، وكتبت بهذا التوقيع ، ولكن كيف عرف الوزير أن هذا « الدرعى » هو أنا ؟ ؟ وهنابدأت « أسطوانة » الدجال الماهر « تخروش » وتختلط أنغامها « لولا كثرة المحطات الإضافية » التى يحتفظ بها هؤلاء للوقت المناسب ، ويذيعون « براجمها »

في الساعات الحرجة ، وهذا الذي حدث . فقد اعتدل « الدجال الماهر » ودعا الأستاذ فلان . . . وكان إلى جوارى ، وقد سمع كل حرف همسنا به منذ جلسنا فقال له :

ماذا حدث أمس عند اجتماعنا بالوزير بخصوص الأستاذ . . . وأشار بيده إلى ؟ .

والجواب الطبيعي أن يقول المسؤول : لقد حدث كذا وكذا مثلاً . ولكنها « برتيتة » يتعاون أفرادها جميعاً لينقدوا موافقهم ، ومن طبيعة العمل في « البرتيتات » أن تكون لعباً ماهراً وكذوباً ماهراً . وإمعة أكثر مهارة ، وأن تستغل كل موقف ، وكل حالة تعتصب فيها المجد بالحق . أو بالباطل .

وأخص صفات أهل « البرتيتة » أن يبرزوا شخصية « الزعيم » ويضيفوا عليها من البطولة والمنزلة ما يسعى به إلى قلوب الجماهير . ولهذا لم أعجب حين رأيت الأستاذ فلان يندفع قائلاً في حركة مسرحية :

يا سعادة البك أطل الله لنا بقاءك ، أنا والله مارأيت في حياتي رجلاً يقف مثلك هذه المواقف المشرفة ، إنك والله خير من يقود المعلمين ، ويرعاهم ويحميهم ، ويحقق آمالهم .

ثم أردف ملتفتاً إلى : تصور يا أستاذ أن الوزير بالأمس كان

في منتهى الثورة عليك ، وكان مصمماً على نقلك إلى قنا ، لولا الموقف العظيم المشرف الذي وقفه هذا الرجل .

إن هذا صنيع لا ينسى ، ولا يتحلل من قيده إلا كل جاحد ، والله وحده يعلم أن الوزير لم يغضب علىَّ وأن أحداً لم يدافع عني بل يعلم وحده أن واحداً من هؤلاء لا يجرؤ على فتح فمه في حضرة « الوزير » .

وعلقت في إحدى زوايا في سخرية مريرة حين رأيت هذه الحيل الساذجة في محاولة فرض شخصية الزعيم وهيلمانها على شخص ليس خداعه ميسوراً .

حين رأيت هذه المحاولة المضللة تذكرت مثلاً عامياً طريفاً ، عن « بائعى المياه ، وعن حارة السقاين » . وخرجت بعد سماع هذه الاسطوانة ، « وقد أثقل كاهي - أوهكذا خيل إليَّ - بصنيع له قيمته . ألم يحمنى الزعيم من غضبة الوزير؟ !! » .

وأنا من أوفى الناس ومن أحفظهم للجميل ، ولكني لا أطيق ما يطلب « المهرة الدجالون » لقاء جميلهم لو جاملوني .

فلقد جاءني أحد أفراد « البرتيتة » ليتقاضاني الثمن .

إنه يعرف بانى خطيب ، ويعرف أن لي قدرة على المشاركة في توجيه الرأي العام ، لأنني أحب المعلمين ولأنهم يحبونني أيضاً . فماذا يريد؟؟ .

إنه يساومنى على جريمة ، يريدنى أن أخون . . .
ولقد كان هو من غير شك دجالا . . . ماهرا .
ولم أكن أنا . . . إلا واحداً من المعلمين . . . مهمته الكبرى
هى . . . تلقين الدروس ؟ ! .

هذه فى الواقع ليست قصتهم معى خاصة ، وإنما قصتهم مع كل زميل
يشقيه القدر ليكون من ضحاياهم ، قصتهم التى خدعوا بها المعلمين
أعواما طوالا ، وسقوهم فىهن كؤوس الفشل المرير مترعة
ضافية أليلة .

هى قصة الخداع ، والتضليل ، واغتصاب جهود الآخرين .
ومهما يكن من شىء ، فما يزال باب التوبة مفتوحاً لمن يريدون
التكفير عن خطاياهم ، وما يزال طريق العودة واضح المعالم لمن
يريدون التطهر والإنبابة .

فإن ندموا واستقاموا ، وأعلنوا المتاب ، فنحن أكرم .
وإلا فوالله لن يلوم المهرجّون إلا أنفسهم ، ووالله إن يهدألى
خاطر حتى أفضح عوراتهم واحداً بعد واحد حتى أحطمهم ،
وأرغم أنوفهم ، وحتى أجعل منهم عبرة لكل من نسوا شرفهم
وخانوا قضاياءهم .

أولئك هم القدامى من قادة الحركات تجار . . . أدنياء . . . من
صنف رخيص . . . كل ما يعرفون . . . هو . . . كيف يصّالون ؟ .

وأما المحدثون؟

فلا أكاد أرتضى وصفهم بالإجرام ، لأن المجرم هو من يتسبب في الجناية على المجموع بالإيجاب أو السلب عن قصد .
وهؤلاء كالرضيع الصغير تقدم إليه ثمرة حلوة ذات فائدة وجنى فيعرض عنها لأن لونها قائم غير مشير .

وتقدم إليها الجرة المشتعلة بلونها الخُلب فيندفع صوبها مأخوذاً بهذا التراقص البديع من ألسنة اللهب ، ويتناولها بيد لا تمس النار حتى يعلو صراخه .

وهو الآن قد جنى وأصاب نفسه بالشر ، وأصاب من حوله معه ، ولكنك غير مستطيع أن تقول عنه إنه جان . . . لأن قصد الجناية معدوم سلباً ، وإيجاباً .

ولا أكاد أرتضى وصفهم بالخيانة .

لأن الخائن من تثق فيه ليكون حامى ظهره ، فإذا هو الذى يطعنك من الخلف ، ويأتيك من حيث تأمن ، فركنا الخيانة هنا : أن توجد الثقة بالخائن أولاً : وثانياً أن يخون هو .

والركن الأول قد يكون موجوداً حين يخدع المعلنون فى الثقة بهؤلاء ولوز مناماً ، وأما أن يخونوا هم فلا . . . لأن اليد التى توجه الطعنة يدٌ قادرة ، وهم ليسوا كذلك .

إنهم أضعف بكثير ، إن أعوادهم رخوة ، إن بنيانهم طرى .
فمن يكونون إذن ؟ وماذا يقال عنهم ؟؟ .

أهم ملائكة ؟؟ كلا . إن الملائكة في السماء ، وهؤلاء في
الأرض ... الأرض التي يلطخ وجهها الطين ، والوحل .

أهم أبطال ؟؟ كلا أيضاً ... لأن البطل من يبتلى حين يحمى الحمى ،
ويدفع ، العادية وهؤلاء لم يبتلوا ، ولم يصبهم ضرر ، ولم يضحوا بشيء .

إنهم لم يبرحوا بعد مكان الحریم .

فمن يكونون ؟ ويم يمكن وصفهم ؟

الحق أنهم أطفال .

أطفال ... مغفلون ... لم ينضجوا بعد .

والطفولة في ذاتها ليست جريمة ، ولا ذنباً ... بل هي ضرب

من الخلود حين يحتفظ بها الفنان ويظل موفور شباب الروح
أبد السنين .

ولكنها ضرب من الخراب إذا كانت في زعيم أوقائد ، وهذا

شيء موفور لدينا .

فقد منيت حركة المعلمين الأخيرة بمجموعة من هؤلاء كما

منيت بشر منهم كانوا فرائس سهلة لأقل الصيادين دربة ومهارة ،

فما بالك إذا كانت وزارة المعارف مليئة بأفاع ذوات أنياب

ومخالب زرق وسود .

ولقد كان من الممكن أن أغفل الكتابة عن قادة الحركات
ومتمزيعيها، وأن أعبر أوكارهم في صمت لولا تقديري لعاملين هامين .
أولاً : أن الأدنياء من الأقدمين منهم يعتقدون في قرارة
نفوسهم التي لم تهذب أن التزعم تجارة رابحة تضمن الدرجات
والترقيات وما هو أكثر من هذين في غفلة من المعلمين الذين
لا يكاد يبدأ العام الدراسي ، حتى تشغلهم أعمالهم عن تعقب اللصوص
ومحاسبتهم على ما يدور باسم المعلمين في الظلام .

وهذا الكسب الكبير الذي لا رقيب عليه يغري كثيرين من
المحدثين بأن ينسجوا على المنوال لعلمهم أن « يصلوا » كما وصل غيرهم .
وإزاء هذا الشر الخطير أحس من واجبي كمعلم ينفر من الدجالين
أيما ثقفوا ، ثم لا يرتضى مطلقاً أن يتاجر باسمه أحد ، أحس من
واجبي أن أجند هذا القلم الضعيف ليشعل النار حيث الخفافيش ،
والبوم ، رجاء أن يتوب الآثمون من الرجال ، وأن يستيقظ
المغفلون من العيال .

ثانياً : أن الرجل الذي يتولى أمر المعارف اليوم ، وهو
« الدكتور طه » رجل بطبعه إنسان وفنان .

والإنسان الفنان ، لا يعرف اللؤم ، ولا يعرف الخبث ،
ولا يحيط من أمر هذه النفوس الهاوية بكبير علم ، وقد تستطيع

هذه النفوس أن تجيز عليه الشر ، أو أن تستغل نبل نفسه بما
يسمى إليه

والخير النبيل يحسب الناس جميعاً خيرين نبلاء .

لهذا - وبنفسى للإنسان العظيم تقدير وحب - أبعث إليه
محذراً من الثقة بهؤلاء ، فإن المعادن تختلف .

وبعد : فهذا كله ليس إلا شيئاً قليلاً مما يجب التعرض له ،
وسوف تتاح لي الفرصة القريبة لأشرح للرأى العام التعليمى خيانات
« أكابر مجرمى الحركات » كيف يقومون بها ؟ وكيف يستغلونها ؟ .
ولأظهرهم على حقائقهم المجردة عارين من كل صفة إلا الدجل
والخداع ، والصيد فى الماء العسكر .

الطفرة أو الثورة؟؟

وأعقد هذا الفصل لأحدث فيه خاصة إلى « الوزير الشعبي »
معالي الدكتور طه حسين باشا . وأجب قبل البدء في الحديث
أن أتساءل ؟ .

هل الصلة بين الطفرة وبين « الوزير الشعبي » تلك التي يعرفها
من أبناء الشعب كل من كانت به خصاصة تحرمة من العلم وتحول
بينه وبين ضياء المعرفة ، وكل من كانت تفيض أعينهم من الدمع
حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ليعلموا أبناءهم !! .

فلما جاء الوزير الشعبي أحدث الطفرة التي أزالته على الكرامة
خصاصاتهم وكفكفت على الرضى أدمعهم ؟ .

أم هل الصلة بين الطفرة ، وبين الوزير الشعبي تلك التي
يعلمها أولئك السراة المترفون السادة الذين كانوا يتفردون بالتعليم
في مدارس خاصة أو شبه خاصة يرضون في عزها الأليف غطرسة
أبناء البيوتات ، وأبهة الارستقراط ، ولا يلحون فيها من وجوه
أبناء الشعب إلا « البوابين » « والخدم » !!

فلما جاء الوزير الشعبي أصبحت الأمور « فوضى » كما يقول
هؤلاء حين يعلنون سخطهم وأصبح لأبناء الشعب حق

قانونى مشروع فى أن يرتاد من بيوت التعليم ما يشاء ، ولو كان البيت الذى آثره أبناء الوزراء ورؤساء الوزارات ؟ .
أعتقد أنه ... لا .

لأن الطفرة فى مجانية التعليم ليست بإعفاء التلاميذ من « المصروفات » وإلغاء نفقات التعليم ، فإن جنيهات عشرة ، أو أكثر منها لا يحتاج إلغاؤها ، أو إبقاؤها إلى تتابع وتدرج .

ولأن الطفرة فى مجانية التعليم ليست فى تمكين عدد كبير من أبناء الشعب من نور المعرفة مكان عدد قليل منهم ، فإن الأمر فى هذه الحال أمر المال الذى تجود به الميزانية العامة للدولة إن زاد زاد الناس ، وإن لم يزد لم يزدوا .

فأين الطفرة إذن إذا لم نجدها بين ذلك كله ؟ .

وبماذا يمكن أن نصف العمل الخطير الذى أقدم عليه « الوزير الشعبى حين جعل التعليم بالمجان ؟ .

الحق أن كلمتى « الطفرة » ، « والتدرج » لا وجود لهما فى موضوع حديثنا الآن ، ولا يصح أن توجدا ، وأن العمل الخطير الذى أقدم عليه « الوزير الشعبى » لا يصح وصفه بالطفرة أو بالتدرج لأنه شئ أعظم من هؤلاء جميعاً .

فإن من الطفرة أن تجعل للخروج من السجن أبواباً عشرة مكان باب واحد .

فإذا حطمت السجن كله بأبوابه وأسواره وحيطانه وأسقفه
جميعاً فهذا ليس طفرة وليس تدرجاً وإنما هو شيء أخطر من
هذين جميعاً .

إنه الثورة ... الثورة العارمة الهادمة البانية التي تنتقل بالمجتمع
إلى طور جديد ، تتغير معه العقليات والأفكار والمقاييس والنظم .
الثورة التي تلد المبادئ .

وقد كان مبدأ ثورة الوزير الشعبي أن يتساوى الناس .. الناس
الذين يرويهـم النيل ، ويغذوهم شاطئه الخصب .
ولكن : بمن يريد الوزير الشعبي الثائر أن يتساوى الناس ؟ .
أبا لسراة الأرستقراط المترفين السادة ؟ ؟ .

كلا : فإن الوزير الشعبي الثائر يعرف جيداً أننا في مصر ، وأن
لهذا البلد مقدسات لا يصح التطاول عليها ، وأن لهذا البلد نظاماً
اجتماعياً طبقياً لا يطبق هو ولا غيره أن يحملوا أوزار هدمه .
ويعلم أيضاً أن رجال الأزهر في مصر يحفظون عن ظهر قلب
قوله تعالى « وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات » .

ويعلم أن البوليس السياسى في مصر يستطيع أن يراقب الوزراء
وأن يحسن الرقابة عليهم ويستطيع أن يتهم من يشاء بما يشاء .
وهو لهذا لم يحاول ، ولن يحاول ، أن يسوئى « الناس »
بالسراة الأرستقراط المترفين السادة .

فبمن يريد الوزير الشعبي الثائر أن يتساوى الناس ؟ وفي أى شىء
يريد أن يتساووا ؟ .

إن الجواب على هذا السؤال فقط عند صاحب « الأيام » عند
وزير المعارف نفسه عند الرجل الذى نشأ هناك على شاطئ
« الإبراهيمية » ، وعرف أن آلافاً من البشر قد فئيت وضاعت
فوق هذا الإقليم ، وأن آلافاً آخر سوف تفنى ويضع فوق هذا
الإقليم وفوق غيره أيضاً ، وعرف أنه وحده أو قلة معه لم يضيعوا
ولم يفنوا ، وعرف أنه وحده من بين هؤلاء جميعاً لم يكن شيئاً
مذكوراً فأصبح شيئاً مذكوراً ، وشيئاً ذا خطر .

فما الظروف التى هيئت له ولم تهباً للآخرين ؟ وكيف قدر له
أن يهزم أسباب الفناء جميعاً ؟ .

يقول الوزير الشعبي نفسه إن العامل الأوّل فى عدم ضياع
من لا يضيعون هو الثقافة . وأن العامل الأخير فى عدم فناء من
لا يفنون هو الثقافة . وأن العامل المتوسط بين الأوّل والأخير
هو الثقافة أيضاً .

ولهذا أراد أن يسوّى بنفسه فى الثقافة جميع أبناء الشعب ،
وأن يمنحهم من نورها ، وضياؤها ما ظفر بمثله من نور وضياء .

وأن يعينهم بالثقافة والعلم ، على أن يخلدوا ويدونوا ، وأن
يحصنهم بالعلم والثقافة من الضياع والفناء .

سدد الله خطى الإنسان العظيم .

وحفظه وأبقاء ، وأمتع به ، وأعانه على إرضاء ذات نفسه ، وهياً
لمصر لفيفاً من نماذجه المؤمنة القادرة تنور وتثير المصريين جميعاً
على الجهل القاتل الذليل .

ولكن ؟ .

ولست أبغض ولكن هذه كما أبغضها ، وأنا أتحدث عن مثل
وزيرنا الشعبي العظيم الشائر فقد أصبحت أقدس في الوزير ثورته
وشعبيته كما قدست فيه من قبل فنه وإنسانيته ، ومن كان أستاذ
روحي وموطن التقديس من نفسى لا أسمح لكن أن تستدرك
من أمره شيئاً ، ولا أن تعقب من تصرفه على شيء لولا أن للشورة
العظيمة معقبات ثقلاً هبطت على رأسى أنا كمعلم مكدود .

أولاً : هل نرى إلى علم الوزير الشعبي الشائر أن عدد تلاميذ
الفصل هذا العام قد بلغ حداً لا يكاد يصدقه العقل ، ولا يمكن
للتعليم معه أن يسمى تعليماً . وإلا فكيف يعتقد الوزير العظيم أن
المعلم - ولو كان أفلاطون - يستطيع أن يباشر المعرفة الصحيحة مع
ستين تلميذاً في مدى ثلاثين دقيقة ، وكيف يستطيع « ضبط » الفصل
وتوفير السكينة والهدوء ؟ وكيف تتأق له أن يدرس نفسيات هؤلاء
التلاميذ ، ويتعرف إلى مواطن الثقافة في عقلياتهم ، وكم من الزمن يتاح له
ليتبادل مع تلاميذه إحياءات نفسه وهمسات حسه ومشاعره ؟ وأى
نوع من أنواع الفوضى النفسية يتعرض له المعلم إذا كان محاطاً

بالفوضى من جميع الجهات فى فصل طويل عريض تصعب السيطرة على تلاميذه ؟ وكيف ينتج التعليم إذن إذا كانت أسباب إنتاجه غير ميسورة ؟ .

إننا نعلم جيداً أن « الدكتور طه » قد عاش حياته العلمية كلها عيشة الجامعيين منذ كان يجلس فى « الحلقة » بين ستين وستين من « المجاورين » فى الأزهر إلى أن دخل الجامعة القديمة فشاهد القاعات والمدرجات تضيق بالطلاب ومنذ أصبح فى الجامعة أستاذاً يلقى المحاضرة فيستمع بها المئات من الحاضرين .

إننا نعلم هذا جيداً ، ونعلم أنه السبب الذى جعل « الدكتور طه » يسبغ أن يجلس فى الفصل الواحد من تلاميذ هذا العام ستون أو ما يزيد .

ولكن على الوزير أن يتذكر ما بين الجامعة ووزارة المعارف من بعيد الفواق .

فإن طالب الجامعة لا يؤذيه أن يتخلف عن محاضرات الأستاذ أكثر العام ، ولا يفوت عليه المعرفة أن يجلس بين ستين أو بين مائة ، وقد يكفيه ويفيده أن يتفهم الخطوط العامة لمنهج أستاذه فى البحث والدرس ، وعليه وحده أن يتعمق ما يريد . لأن عماد الدراسة الجامعية قائم على الطلاب لا على الأساتيد .

أما تلميذ وزارة المعارف فأى لحظة يخطئه فيها ما يقول المعلم

ضياح من ثقافته لا يستطيع وحده أن يعوّضه لأن عماد الثقافة في الوزارة مركّز في المعلمين .

وطالب الجامعة مطلوب إليه أن يبتكر ويجدد ، وأن ينطلق في آفاق المعرفة حرّاً يحصل ما يرتضيه ويسيعه غير سائل عن الأستاذ في كثير أو قليل لأن مقياس التمييز في امتحانات الجامعة أن يتحرر الطالب وأن يبتكر . وليس الأستاذ في الجامعة إلا موجهاً ومعيناً . أما تلميذ وزارة المعارف فمطلوب إليه أن يحفظ وأن يردد ما يقول المعلم ، ومحرم عليه الابتكار والتجديد لأن مواد الدراسة في الوزارة لا تطبق التحرر ولا تقبل التجديد ، ولأن مقاييس التميز في امتحان المعارف أن يتقيد التلميذ بما تلقاه من المعلم فينقله في دقة وأمانة وصدق .

ثانياً : هل نرى إلى علم الوزير العظيم أن وزارة المعارف في عهده قد وهبت القدرة الخارقة على أن تقول لأى موظف عادى كن مدرساً فيكون . وأنها استطاعت أن تخرج للدولة مدرسين في هذا الصيف من « ماركة ست أسابيع » ؟ .

فهل أعدّ هؤلاء الموظفون الإعداد الفنى السكامل للتدريس كما يجب المثالى العظيم ؟ .

أم هل صحيح ما يزعم الزاعمون أنه التهريج ؟ .

الحق أن « الدكتور طه » هو وحده المسئول عن هذا وعن أكثر

من هذا ، وهو وحده الذى يجب أن يوجه إليه اللوم والتعب الشديد إذا كان فى سياسة المعارف فى عهده ما يستحق اللوم والتعب الشديد .
وقد يقول بعض من يحبون « الدكتور طه حسين » ويحاولون أن يدفعوا عنه أن الطفرة وفترة الانتقال هما السبب فيما حدث فى عهد طه حسين ، وهو عذر قد يخدع به البعض .

ولكننى أراه عذراً أقبح من الذنب كما يقولون « فطه حسين » لم يكن قصير النظر حين فكر فى مجانية التعليم ، وفكر فى معقباتها فكان عليه أن يحسب لهذه الخطوة الجريئة حسابها ، وأن يقدم هديته للشعب كاملة وجميلة وكان عليه أن يخرج هذا العمل الفريد فى الصورة الممتازة البريئة حتى من أتفه العيوب لأننا ننظر إلى « طه حسين » على أنه رجل مثالى ليس عندنا كثير منه فأقل هنة يتعرض لها عمله تعرض الوزير العظيم للوم والعتاب الشديد .

وقد يقول بعض من يحبون « طه حسين » ويحاولون أن يدفعوا عنه إن ميزانية الدولة من جهة ، وعدم إمكانية التنفيذ بالصورة الخاطفة من جهة أخرى هما اللذان أديا إلى هذا الوضع .
وسيقولون إن الوزير هدد بالاستقالة وما يزال يهدد إذا مست ميزانية المعارف ، وأنه طاف بالأقاليم بجمع التبرعات لحماية مشروعه العظيم .

ولكن منذ متى كانت تبرعات أهل الخير من الموارد المضمونة

التي يدخلها المسئولون في حسابهم عند الإقدام على أى عمل ؟ ومنذ متى جازت الثقة بشيء لا يزال في ضمير الغضب وخاصة إذا كان مالا ؟ ولماذا أقدم الوزير العظيم على التصرف بما تضيق عنه ميزانية وزارته ؟ ولماذا لم يفكر في الميزانية وضيقها واحتمالها قبل اتخاذ أية خطوة ؟ .

إن « طه حسين » فنان مثالى من غير شك وطبيعة الفنان المثالى لا تسمح له أن يخرج عملا فنيا فيه أى « شذوطة » فلماذا سمح الإنسان العظيم أن يترك الفرصة لبعض الناس أن يقولوا عن مشروعه العظيم الرائع بأنه ضرب من التهريج ،

أسأل الله ألا يخرج « الدكتور طه » من الوزارة فى هذا التعديل كما تقول الصحف حتى يستطيع توفير جميع أسباب المثالية والسكال لهذا العمل الخطير وحتى يستطيع بعمله أن يرد على من يعجزنا أحيانا أن نرد عليهم .

وأخيراً

إذا استطاعت وزارة المعارف أن تخلص من أدوائها تلك ،
كان لها أن تأمل في سياسة تعليمية تورث الشعب نهضة كبرى
وتطوراً جديداً ، وكان لها أن تعقد الرجاء على صف من الشبيبة
صلب كأنه البنيان يدفع متوحداً عن حماها ويصون من كل شر
ديارها ، وينساب في ميادين التضحية والفسداء مطئن الضمير تحمي
عدالة المجتمع ظهره من كل نازع سوء .

ولنأخذ بعد في رسم السياسة التعليمية الجديدة التي أعتقد مخلصاً
أنها السبيل الطبيعي لخلق شعب موحد الأفكار والمشاعر ، والتي
أتمنى من كل قلبي أن تقع مواقع الرضا من قلوب المصريين عامة
وأفاضل الزملاء من رجال التعليم خاصة .

التنظيم الجديد

لمراحل التعليم

وتوصلاً إلى الغايات التي قررنا من قبل، نرى أن تنظيم مراحل التعليم على السياسة الآتية :- .

(١) المرحلة الأولى: ومدتها ست سنوات تبدأ منذ السادسة: ويجب أن يكون الغاية منها خلق التليذ « المصرى . العربى . المتدين » التي تشرب روحه جهد المستطاع بكل ما هو مصرى ، وتبنى استعداداته الأولى على الإيمان بكل ما هو مصرى وتفتح مشاعره على الإحساس بمصر العظيمة ، تاريخاً ، ودينياً ومجداً وحضارة . وتكون عقليته تكويناً مصرياً عربياً دينياً صحيحاً .

فهذه المرحلة من أجل مصر ، ومن أجل مصر وحدها بحيث تخلق من التليذ مصرياً في لحمه ودمه مصرياً في دينه ولغته . وثقافته . ولهذا فانا شديد الإيمان بأن أى ثقافة أجنبية عدو شديد الخطر على ثقافته القومية وأن أى لغة أجنبية في هذه المرحلة أمر شديد الخطرة على اللغة القومية للبلاد .

فيجب ألا يعرف التليذ في المرحلة الأولى من اللغات الأجنبية حرفاً واحداً ويجب إلغاء اللغات الأجنبية فوراً من جميع مدارس المرحلة الأولى .

ويجب أن يكون برنامج الدراسة في هذه المرحلة موقوفاً على استيعاب الأسس الكاملة للدين القويم ، وعلى حفظ القرآن الكريم أو الإنجيل المقدس ، أو أكبر جزء منهما بحيث لا يفرغ التلميذ من هذه المرحلة حتى يكون ملماً إلماماً أصيلاً بمبادئ دينه وأصول عقيدته ، وحتى يكون قد حفظ من الكتابين الكريمين أكبر قدر مستطاع .

كما يجب أن يحيط التلميذ علماً بجميع المبادئ العامة لقواعد اللغة العربية ومواطن الجمال في آثارها الأدبية الخالدة بحيث يترسب في نفسه تقدير هذه اللغة وحبها واحترامها ، ويحس تكون له أصالة لغوية يدور حولها تفكيره وتعبيره ، وهي في نفسه في مركز مستقر .

كما يجب أن يختار له من تاريخ مصر الجانب المشرق المضيء الذي يخلق منه متعصباً لمصر قوى الإيمان بوجودها وحقها في الحياة .
(ب) المرحلة الثانية .

وتبدأ منذ نهاية المرحلة الأولى .

والغاية منها : خلق التلميذ المصري الحى . وأعنى به هذا الذى يستطيع السير فى الحياة بغير سند ، والثبات لكفاح الزمن نوعاً ما ويستطيع أن يكسب عيشاً كريماً ملائماً بوسائل شريفة وملائمة بحيث يصبح بعد نهاية هذه المرحلة صالحاً لأن يفيد الدولة ويستفيد منها .

والطريق إلى هذا : يجب ألا تقل المرحلة الثانية عن ست سنوات نقسمها إلى قسمين :

فأما الثلاث الأولى فيجب أن تتسع برامجها لدراسة لغة أجنبية واحدة يختارها التلميذ أو تختار له من بين اللغات الأجنبية عامة . على أن تكون دراسة شاملة كاملة تمكن له من الإثراء باللغة التي اختارها حين تصبح هذه اللغة جزءاً من مقوماته الثقافية يستطيع استخدامها في الكتابة أو في التخاطب .

كما يجب أن تضمن البرامج دراسة فنون الاختزال والآلة الكتابة والسكرتارية والسنترالات وغيرها من الثقافات التي هي في الحقيقة عنصر هام تحتاجه الحياة العلمية . بحيث يمكن أن تكون هذه الدراسة عوناً له على الحياة إذا اضطر إلى النزول في ميادينها وبحيث تكون وسيلة من وسائل تيسير العيش الملائم للتلميذ إذا لم يستطع مواصلة الدرس .

وبوسعنا أن نصف هذه الفترة من المرحلة الثانية بأنها تخلق في التلميذ نصف كفاءة للحياة وتهيؤ لها نصف تهيمّة .

وفيما بقي من سنوات هذه المرحلة ما يكمل إعداد التلميذ للحياة وما يكمل أيضاً إعدادة للمرحلة العقلية العليا في التعليم الجامعي . وسبيلنا إلى ذلك . أن تخصص السنوات الباقية في هذه المرحلة لدراسة الاتجاهات المختلفة عند التلاميذ ، على أن تكون هذه

الاتجاهات صورة صادقة من واقع الحياة ، وأن يكون لكل كلية في الجامعة شعبة في التوجيهى يتخصص طلابها في المادة التى سوف يدرسونها فيها ، فيكون فى التوجيهية شعبة للطب تؤهل طلابها لدخول كلية الطب ، وشعبة للعلوم تؤهل طلابها للعلوم ، وشعبة للزراعة ، وشعبة للتجارة ، وشعبة للدين وللغة العربية ، وما إلى ذلك بحيث تكون كلمة « توجيهى » حاملة لمعناها الصحيح الذى يقصد منها لأنها إذن سوف تتيح للطالب فرصة أكبر يتصل فيها بالمادة التى سوف يتخصص فيها فيدل أن يدرس طالب الحقوق أربع سنوات فى الجامعة فقط سوف تتاح له فرصة عامين أو أكثر فى التوجيهى يتعرف فيها إلى القانون وتزداد ثقافته فيه ، وما يقال عن الحقوق يمكن أن ينطبق على جميع كليات الجامعة ، وبهذا يكون العمر العلمى للتلميذ قد أضيف إليه عامان دراسيان أو يزيد وهذا كسب عظيم .

والذى أقصد إليه من التقريب بين ما يدرس فى الجامعة ، وما يدرس فى التوجيهى ومن جعل القسم التوجيهى ثلاث سنوات بدل سنة واحدة .

أن أهى التلميذ لدخول الجامعة إذا أراد وقدّر له دخول الجامعة وأن أهيه لأن يأخذ فى المجتمع وضعاً كريماً مناسباً إذا لم يقدر له دخول الجامعة .

فيستطيع من لم يدخل الجامعة من شعبة الزراعة أن يباشر الأعمال الزراعية اليسيرة التي يستفيد هو منها ويستفيد المجتمع ، ويستطيع من لم يدخل الجامعة من شعبة الدين أن يباشر الأعمال الدينية الأولى كالأذونية وإمامة المساجد وغيرها مثلاً من الأعمال التي لا تحتاج مباشرتها إلى عميق ثقافة. على أن حامل التوجيهى عندنا لن يكون فارغاً ، ولا عائماً وإنما سيكون شبيه متخصص بعد أن أمضى ثلاث سنوات فى دراسة المادة التي توجه إليها .

فإذا قدر للتلميذ أن يدخل الجامعة فدونه أبوابها مفتحة ، وإلا : لم ينزل إلى الحياة ضائعاً حيران مضطرباً كجميع التلاميذ الذين يحملون التوجيهية فى مصر ، والذين ترفضهم الحياة رفضاً شنيعاً ، ولا ترى فيهم صلاحية لشيء أكثر من الانزواء القاتل فى « أرشيف » ديوان من الدواوين تأكلهم الرطوبة ، ويسخر منهم الزمن .

التعليم الجامعى

المرحلة الثالثة :

وقد يكون ميسوراً أن نتحدث عن التعليم الجامعى بعد أن أصبحنا شبه مطمئنين إلى سلامة سير التلميذ فى المرحلتين الأولى والثانية ، فالجامعة ليست إلا المورد الأخير الذى تنتهى إليه هذه الروافد الجارية ، ومادامت غاية التعليم فى المرحلة الثانية أن يعد التلميذ للتعليم الجامعى أولاً ، فمن الواجب علينا أن نطالب باستقبال هذا الجيش اللجج من الشبيهة المصرية المثقفة من ذوى الاتجاهات العلمية المختلفة ، ومن حقنا أن نطالب الدولة بأن تكون فيها على الأقل أنواع خمس من الجامعات تنتظم ، أو يمكن أن تنتظم مرافق حياة المصريين جميعاً ، وتلائم روح التطور الذى نسير فيه .

فلتكن هناك جامعة دينية تتلقف تلاميذ شعبة الدين لتصوغهم على عينيها قضاة للشرع ، أو محامين له ، أو علماء لأصول الدين . أو ما إلى ذلك من الثقافات الدينية العالية .

ولتكن هناك جامعة أدبية تتلقف تلاميذ شعبى الآداب والحقوق ، واللغة العربية ليتخرجوا فيها أدباء منتجين ، ونقاداً أو صحفيين أو علماء لغة أو مترجمين أو محامين .

ولتكن هناك جامعة فنية تتلقى التلاميذ من الشعب الفنية ليتخرجوا فيها مثالين أو ممثلين ، أو موسيقيين أو مصورين وما إلى ذلك من الفنون الجميلة الراقية ولتكون فيها كليات للتمثيل والموسيقى والنحت والتصوير والرسم .

ولتكن هناك جامعة علمية تتلقى أصحاب الاتجاهات العلمية فيتخرج في كلياتها الأطباء والصيادلة ، والكيميائيون ورجال الزراعة والتجارة والمهندسون .

والحق أن حديثي عن التعليم الجامعي ليس فقط إلا ضرباً من استكمال البحث بعد هذه الخطوات المباركة التي بدأها الدكتور طه نحو الجامعات المصرية . ولكني سوف اتحدث بإيجاز عن أمرين عامين يتصلان أعظم الاتصال بالتعليم الجامعي وهما : مجانية الجامعة والجامعات الأهلية :

أولاً: مجانية الجامعة .

نريد أن يمكن أكبر عدد ممكن من أبناء الشعب من نيل قسط وافر من هذه الثقافة الجامعية العالية .

ولذا فلا ضير أن تكون في التعليم العالى مجانية .

وأن تقصر على الصالحين الممتازين من أى طبقة كانوا . بشرط أن يكونوا عاجزين .

ومن الخير أن نترك تقدير العجز والإطاقة لرجال المال والاقتصاد وإن كنا نرى مثلاً أن الموظفين من طبقة الدرجة الخامسة عاجزون أو أشبهه بالعاجزين .

وإذا فلا مانع عندى من اعتبار كل صاحب دخل فى مثل هذه الدرجة عاجزاً سواء كان من المزارعين أم من التجار .

وأمر هذه المجانية بهذا الوضع مجال للماطلة والتسويق والأخذ والرد . فلا مانع عندة من تشكيل لجنة مالية تقدر مصروفات كل كلية جامعية على حدة ، ثم تقدر مستوى العجز والإطاقة عند ذوى الدخل مهما يختلف حالهم .

وبعد انتهاء اللجنة من عملها فلا مانع لدى أيضاً من أن تتولى الدولة خصم المصروفات من مرتب صاحب الدخل إن كان موظفاً .

ومن إضافته بصفة ضريبة إن كان تاجراً ، أو بصفة « مال
ميرى » يدفع أيضاً على فقدان. ويحصله « الصراف » إن كان مزارعا.
ولا مانع أيضاً : أن يكون في كشوف مرتبات الموظفين ،
وفي دفاتر التجار، وفي « ورد » الأموال المقررة « خانة » للمصروفات
الجامعية ، يدفعها صاحب الدخل إن كان يربى جامعياً . وكان هو
نفسه منى دوى الإطاقة .

ثانياً : الجامعات الأهلية .

ومن البديهي أننا حين نطالب الدولة باحتمال نفقات التعليم الجامعي
نكبدنا سبيله المتعاعب . فلن نمكن منه إلا الممتازين والصالحين
والأكفاء الذين يمكن أن يعوضوا الدولة في مستقبلهم لقاء ما تبذل
في حاضرها من أجلهم .

وتقدير الصلاحية والامتياز أمر متروك لرجال الجامعة وهيئة
التدريس فيها .

ومن البديهي مرة أخرى أنه لن يقدر لجميع الذين فرغوا من
المرحلة الثانية من التعليم أن يدخلوا الجامعة ، ومعنى هذا أن أبواب
الجامعة ستوصد في وجوه الكثيرين من المصريين لعدم ظفرهم
بالتقدير العلمي المؤهل للجامعة .

وهؤلاء الذين يحرمون من دخول الجامعة لضعفهم العلمي فريقان :

(١) العاجزون من أبناء الشعب عن احتمال نفقات جديدة للتعليم .
وهؤلاء من الخير لهم وللدولة . ماداموا قد اجتمع فيهم
العجزان المادى والعلى .

من الخير أن ينصرفوا إلى الحياة فيعالجوا أمورهم فقد تتاح لهم
فيها فرص ربما تكشف عن مواهب يمكن تنميتها في غير الحرم الجامعى .
وإلا فيكفى أن يظفروا بحياة ملائمة مقبولة . لا تحط من مستواهم .
(ب) والفريق الثانى هم أبناء السراة القادرين على احتمال العبء
المادى مهما يكن أمره . والذين وإن لم يتح لهم الظفر بالتقدير
العلى لدخول الجامعة . إلا أنهم مع هذا يرغبون فى الثقافة
ويقدرون على البذل فى سبيلها .

فلهؤلاء ، وهؤلاء وحدهم يجب أن تفتح الجامعات الأهلية أبوابها
وعلى هذه الجامعات تبسط الدولة سلطانها التعليمى ، وعلى الدولة
أن تعقد الامتحانات النهائية لطلابها مع نظرائهم من أبناء الجامعات
الحكومية . وإلا فالدولة فى حل من الالتزامات التى تترتب على
الاعترافات بالدرجات العلمية الممنوحة لهم .

تدعيم

بهذه الكلمات القليلة القادمة ينتهى الجزء الأول من الكتاب ،
وباتتهائه نكون قد فرغنا فقط من تكشيف الأرض حول الشجرة
الخبيثة تمهيداً لقطع جذورها .

والشجرة الخبيثة فى وزارة المعارف تلك التى غرسها بيديه
الأيتمتين « دنلوب » وأعانه عليها قوم آخرون جنواً إثمًا ووزرا
وخيانة لما أتت أكلها ضعفين شرّاً وإذلالاً وضعفاً وشقاقاً .

وإذا كان المصريون يريدون أن تخلص لهم مصر مما هى فيه
من شر ، وأن يخلصوا هم لأنفسهم مما يقصم ظهورهم من ذل ، وإذا
كانوا يريدون أن يستبدلوا من ضعفهم قوة وتوثبا ، ومن شقاقهم
الآلیم محبة واتحاداً ، فليولوا وجوههم شطر وزارة المعارف
ليطردوا من قيادتها جميع الصنائع القذرة التى رباها « دنلوب » على
طريقته أو رببت فى عهده على الأقل . لأن هؤلاء جميعاً وزراء
كانوا أم أشباه وزراء أم من دون هذين شر مستطير لا يشع منه
إلا شر ولا يملك الأشرار حتى لو أرادوا أن يصبخوا خيرين
وهؤلاء جميعاً رخاص أذلاء سحب الخواجا حمرة وجهه القانية
من دماء قلوبهم ومن كرامة وجوههم ثم علقهم فى خيوط حذائه
أشباحاً حقيرة تسجد له إذا قام ، وتصلب مهينة بين يديه إذا جالس

وما يملك الأزلاء يوماً أن يصبخوا كرماء ، فكيف يترك في مكان القيادة من يفرع كل شيء أحمر يذكره بوجه « المستشار » ؟ !

وهؤلاء جميعاً يباسون في دخائل نفسياتهم هواناً مريراً ذاقوا أساه أيام « بلوب » ولم يكونوا صالحين لأن يخلصوا منه ، ولا أن يشوروا عليه ، ولكنهم يستديرون ليشأروا لأبائهم السليب من مرؤوسيههم أبناء هذا الشعب فيفرغون ذلهم الدفين على رؤوس هؤلاء غطرسة وكبرآ وغلاظة وجفاء طبع .

فليتفضل الوزير الشعبي الثائر الموطأ الأكتاف بأن يتوجه بالنصح إلى السادة الكبراء في وزارته أن يتعاملوا معنا نحن الشعب بشيء من التواضع والدعة وخفض الجناح ولين الجانب .

فإن أصاخوا لنصح الوزير فسوف يكون عهد جديد لنا فيه أمل ، وإلا فعلى الوزير أن يدعم أخلاق الوزارة بألوان جدد تصلح لتأسيس دعائم النهضة وتكوين جنودها الأشداء .

وإلى اللقاء في الجزء الثاني لنضع أمام القراء من مآسى التعليم المصرى ما هو جدير بالثورة والتحطيم ؟ .

عبدالصبور مرزوق

مرزوق، عبد الصبور
فوضى التعليم في مصر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01022190

American University of Beirut



General Library

370.962

M393 PA

v.1